45
حروف
نلعب أفلام
هدى حسين
الهيئة العامة لقصور الثقافة
2014
نلعب أفلام
هدى حسين

هدى حسين

نلعب أفلام

(رواية)

ما الدنيا إلا مولد كبير

ماحدش عارف صاحبه

وبرضك بيتفزلكو

ناس تقول حاضر

وناس تقول غايب

ماحدش أبدا قادر

يقول معرفش

الفصل الأول

المؤرخ

(١)

ربما لأننى لم أمثل أى دور ، كان على فى النهاية أن أرتدى شارب المؤرخ ولحيته البيضاء، صامتاً ، وأدخل حجرتى دون انتباه لأفواه الأسرة تنفتح وتنغلق على تعبيرات بين الحنو والشفقة والفضول والعقاب. الوحيد الذى يعود من تلقاء نفسه هو الوحيد الذى يمكنه أن يكتب، وأن يتوخى الموضوعية قدر الإمكان. أن يفتح عينيه على الأحداث ويغلقهما على وجوه أصدقائه التى ذابت وتلاشت تدريجياً حتى تحللت وتحولت إلى وجوه أخرى ، دون أن ينفعل أو يحاكم.

لحية المؤرخ وشاربه لا يجب أن يختلطا على مصمم الأزياء بباروكة القاضى البوكليت.

لم يكن يجب أيضاً أن نلعب هذه اللعبة. لكنها ليست مسئوليتا ، ليست من اختراعنا، كانت موجودة ، مطروحة فى كل مكان. أن نمثل ، كان ذلك بديهياً ومتوقعاً ، رغم أن الفكرة

طرأت علينا فجأة. ولتوخى الموضوعية ، الفكرة طرأت على عقل غارب فجأة. كانت نيته حسنة.

لكننى لم أوافق. لا لأننى " عايش فى دور الحكيم " كما قال غارب مندفعاً مأخوذاً بجلال الطبيعة حولنا ومنجذباً للعبة. فى رأيي أنه لم يكن منجذباً لهذه اللعبة بالتحديد ، بل كان منجذباً للعب. ولم تكن هذه اللعبة إلا أول ما طرأ على رأسه. لذلك اعتبرها اكتشافاً نابعاً من أعماق الذات.

ولم يسعفنى لسانى الذى كفه انفعال غارب لأن أقول له أن هذه اللعبة ، ولأنها أول ما طرأ على رأسك فجأة ليست تخصك ، إنها أول نجدة طرأت على الذهن. والنجدة عادة ما تأتى أثناء التفتيش فيما نعرفه : فى القديم. فيما ليس يخصنا بالضرورة ، لكنه مطروح تحت النظر لدرجة تجعلنا نألفه ولا نعود بذلك نلحظ وجوده لكنه يكون أول ما تقع عليه أعيننا عندما نبحث عن أى شىء.

ويتحول معنى " أى شىء " هنا ، إلى " أى شىء مجلوب من الخارج ، مصدر إلينا بكثافة " ...شىء ممتع بالضرورة ، لكن المتعة لا تعنى أنه شىء من عندنا ...

حاولت بينما لا ألعب معهم أن أبلور الفكرة ، أو حتى أن أفكر فيما يخصنا ولا نعرفه، لكننى كنت أعود بلا إجابة ، يمتصنى دور المتفرج على أفعالهم. دور لم أحدده .. لكن لعبة التمثيل ورفضى الاشتراك فيها لم يترك لى إلا أن أكون متفرجاً. إنه خطأ اللعبة وليس خطأى. أو ربما تكون تلك الجملة هى أول نجدة طرأت على ذهنى. فكرة موجودة مسبقاً ومطروحة لحماية الذات بإلقاء اللوم دائماً على الآخر. على أى ما هو ليس " أنا " التى على أن أحميها. ولماذا أحميها ؟ هل أنا فى موقع أدنى ، أضعف ؟ لماذا الافتراض الدائم أن كل ما هو ليس أنا هو عدو لى وعلى أن أحمى نفسى منه ، أن أقصيه وأرفضه ؟

غارب أيضاً كان يقول شيئاً شبيهاً مدافعاً عن اللعبة بينما أقنعه بتركها. كان يتساءل هل لأنها ليست جديدة أرفضها

؟ لم لا نستمتع بوقتنا ونخفف قليلاً من توتر البنات ؟ اعتبره عمل إنسانى يا أخى ..

لكنه لم يكن يلحظ أنه بينما يقبل اللعبة يرفضنى ، أنا ، صديقه ، لستُ شيئاً عاماً مطروحاً فى كل مكان. أنا أخصه أكثر من اللعبة. يرفضنى ويقبلها. هكذا يكتسب وباؤها أرضاً جديدة ينطرح فيها. وأكسب أنا كل هذا التفرج على أصدقائى يتواطأون فى اللعب..وأنتقل معهم من مكان إلى مكان كمتاع تجمدت الرغبة فى الاستفادة منه والرغبة فى التخلص منه معاً .. سيان ..

غارب ، أول من أسقطته اللعبة. لم يعد لى صديق : كان الوحيد الذى أقيم معه جدلاً..بموته ، حكم على أن أنفصل تماماً ، أن أصبح متفرجاً فعلاً. كانت هذه هى طريقته الأخيرة ليقنعنى. ضربة أفنى فيها حياته. كان مخلصاً جداً لأفكاره.

.. لكن دعنى أخبرك بشىء يا غارب. لو أن لأحد مثل إخلاصك هذا لشىء لما احتاج الناس للتمثيل ، ولو حتى كلعبة يتسلى بها أصدقاء ليخففوا من توترهم. لكنك كنت مخطئاً يا

أخى. كل هذا الإخلاص ، وإخلاصك أنت يا أخى ، لم تكن جديرة به هذه اللعبة.

ثم إن التمثيل لم يبدأ لحظة ما طرأت على رأسك الفكرة. بدأ قبل ذلك. عندما قررنا نحن الثلاثة أن نعاكس ثلاثة بنات يخرجن من المدرسة. كل واحد منا اختار لنفسه واحدة. أعرف أن جسم عزة هو الذى أغرى سلامة. وأنت اخترت فردوس. ربما أعجبك فيها أنها بنت بلد. لم تقل أبداً لماذا اخترتها. وبقيت على اختيارك بالرغم من كل ما فعلته فردوس. وأنا أخذت من تبقت. كانت سلوى. رغم أننى أحببت عزة. أعرف أنك كنت تحس ذلك. وأعرف أننى لم أفعل شيئاً من أجلها.

ليتك معى الآن يا غارب. تجذب مقعدك إلى مكتبى. ترشف كوب الكاكاو باللبن بذات المتعة والتذوق الذى تكشفه ملامح وجهك. ليتك ترن جرس الباب. تفتحه لك أمى أو أختى الصغيرة. لأنك حنون جداً وتعرف أن تعاملهم أفضل منى. تعرف أن تقبلهم دون تفكير وتحبهم كما هم. أو كأنهم غير

موجودين أصلاً. أن تطرق باب غرفتى مفعماً بالصخب: إزيك يا وَحش ! " تقول وتلكزنى. تمشط شعرك كأنك ترافولتا الذى نحبه ، ثم تسحب كرسيك وتنظر ببراءة إلى أوراقى وتندفع غير مبالياً : " اسكت أما حصلت لى حتة دين حادثة النهار ده ! وأنا جاى بالميكروباس اكتشفت إنى ما عاييش فلوس. عملت حمش وتخنت صوتى وبدأت أسأل بعجرفة ، إيه ما حدش هايلم الأجرة ولا أيه ؟ اندفعت بنت ملتزمة أوى وتنقط وناولتنى أجرتها والحمد لله كانت فاتحة خير."

-" إيه ؟ خرجت معاها ؟ "

-" لو كنت عاوز أخرج معاها ما حدش كان هايمنعنى ! بس أنا قلت ألم بقيت الأجرة وانزل قبل ما السواق يطلبها منى ، خد. اشتريت علبة سجاير. أنت عشرة وأنا عشرة. مش مهم أوى الواد سلامة ده غنى يا خويا. يبقى يستلف من أمه ! "

(٢)

السور الأسود العالى .. أطرافه المعدنية المسننة تبدو كأرواح مشدودة إلى سماء الظهيرة الحارقة. أنا وسلامة بعد انتهاء اليوم الدراسى. يعزم على بسيجارة مارلبورو حمراء من العلبة التى سرقها من خرطوشة أبيه التى يضعها فى الثلاجة. عندما يضع سلامة العلبة فى جيب قميصه الأبيض يشير غارب إلى سلامة ويقول : " تلاجة تانية ، ما فيش فرق! ثم يطلب منه سيجارة ببراءة من لم يقل شيئاً لتوه. مرح. مشحون بالطاقة لبداية اليوم الدراسى ولانتهائه. فى الطابور المدرسى

- " مرحب يا شباب ! "

لكن سلامة الذى أهدانى سيجارة لكى أبقى معه لأمر مهم سيتفضل عليك بواحدة :

" خد. أنت مش أكثر من شحات سجاير. "

- " هات. وانت يدوب مخزن سجاير. ولع ولع. خلينا نحرق الفران المفرومة! "

- عندئذ كانت مدرسة البنات الملاصقة لنا تفتح أبوبها للخروج.

سلامة يرينى الفتاة التى يريد أن " يصيع معاها اليومين دول ". كانت تخرج من المدرسة كل يوم ويكون هناك شاب فى انتظارها وسرعان ما يختفيان.

قال سلامة : : " ده مش ممكن يكون أخوها. دى مش نظرة واحدة لاخوها أبداً. أنا اعرف اكتر منك.

وهذا صحيح. فأنا لم أرتبط بفتاة من قبل بسبب نحولتى الزائدة. سلامة نحيل أيضاً ولكن ليس إلى هذه الدرجة. ثم إنه وسيم ويعرف أن يخطط:

-" دى حلاوتها. لما تكون البنت مرتبطة ، ولأول مرة فى حياتها زى مانا شايف، أكيد هاتنتهى العلاقة أول ما ترفض إنه يبوسها. أكيد هايقطمها ويسيبها علشان ينتقم لكرامته. يقول لها مثلاً .. " إنت باردة " .. أو " أنت ما بتحبنيش زى ما بحبك " .. البنت بتحب لأول مرة ، يعنى بتحب أوى. وهايسيبها ، يعنى هاتتهز أوى. حبة حنية منى هاتشبط فى. ثقتها فنفسها ها ترجع لها عن طريقى ، يعنى عمرها ما هاتفكر تسيبنى. هاتكون عاوزة أى علاقة، المهم إنها ما تفشلش زى اللى قبلها. ولو اتمنعت أقول لها إنها لسة بتحب الأولانى. إنى هاسيبها. مش هاتستحمل! هاتعمل أى حاجة علشان ترضينى. وأنا رضايا غالى. غالى أوى.. هاتحاول تثبت لى إنها مش باردة زى ما قال صاحبها. وتثبت لنفسها إنها ممكن تنجح فى علاقة. وكل ما تتمنع أهددها إنى هاسيبها. وكل ما أهدد هاتتنازل .. لغاية ما تتعود بقى.. ودى يابنى فايدة إنك تكون الراجل التانى. لو كنت الأول هاتتمنع عليك. ولو كنت التالت هاتنتقم من التانى فيك."

-" وها تعرف منين يا حلو إنها سابته ؟ " سأل غارب سلامة متأففاً.

-"وانت إيش فهمك يا لوح " قال سلامة ".

ثم مال على وهمس فى أذنى كأنما ينصحنى كتلميذ : " واحد بيجيلها كل يوم لمدة تلات شهور. لو ما جاش يبقى سابها. وأنا وراها ".

رماد سجائرنا نحن الثلاثة كان يسقط فى بركة واحدة مملوءة بماء المطر.

عزة. تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. ينشرح وجهها وعيناها لرؤية الشاب الذى ينتظرها واقفاً فى الجهة الأخرى. أمامه مقعد من الرخام. يسند ظهره إلى السور الأخضر الموازى للنيل. تندفع عزة - التى لم نكن نعرف اسمها بعد – إليه فيصدمها الشارع بآلات تنبهه وسياراته المارقة بلا مبالاة. تحجم عزة كعصفور مذعور من المشى على الأرض.

ثم تغامر بالعبور. تظهر على الجهة الأخرى وهى تسلم على حبيبها ويختفيان.

عزة تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. هو. ينتظر على الجهة الأخرى شارداً يستند إلى شجرة ضخمة على يساره. تفاجئه عزة فيختفيان.

تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. هو. ظهره لها وجهه لنيل. تقف إلى جواره قليلاً تسحب حقيبتها ويمشيان.

تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. دقائق ثم يأتى حبيبها. تتهلل. يمشيان.

تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. تنتظر فى الجهة الأخرى. يعاكسها شباب من مدرستنا. تهرب. يرحل سلامة. أنتظر فترة أطول مع غارب. حبيبها لا يأتى. أخفينا ذلك عن سلامة.

تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. لا يأتى.

تخرج من باب المدرسة. تتلفت حولها. لا يأتى.

تخرج من باب المدرسة بصحبة صديقتين لها. تتلفت حولها. لا..

يلقى سلامة سيجارته : " Now " ويندفع نحوهن.

يشدنى غارب لنمنعه عن عزة ، من أجلى. لحقنا به قبل أن يبدأ الكلام واندفع غارب "ينقذ الموقف " : احنا رايحين المولد تيجو معانا ؟ "

كانت عزة ما تزال شاردة. وفردوس غارقة فى الضحك. أما سلوى فكانت أجرأهم فى تلك اللحظة لقد تكلمت ! :

- " ياى ! نفى أغوح ! " متجهة إلى سلامة الأنيق.

فالتقتت إليها فردوس بازدراء :

- ياى ؟ من إمتى ياختى لسانك اتعوج ؟"

قال سلامة : - " وانت يا .. "

: - " عزة . "

: – " وانت يا عزة ، رأيك إيه ؟ "

: - " مش عارفة .. "

: - " تعالى يا شيخة وروائى أعصابك. أدينا هانتفرج و .. "

وانطلقا فى حديث منفرد ، أمامنا أنا وسلوى التى تحدثت إلى دون أن أنتبه لها.

- " أنا اسمى سلوى.

أنا عمرى ما رحت موالد.

لو عمرك ما رحت ممكن أحكيلك عنهم.

بابى حكالى عنهم.

أصله كان بيشتغل هناك !

أه والله! فانتاستبك ! عارف أبو الغيط ؟

بس دلوقت بيقدم عروضه فى الأوتيلات.

إنت ما بتعرفش تتكلم ؟

طيب اسمك إيه ؟ .. "

(٣)

غـارب : " مـاكنتش عـاوزه يسـتفرد بيهـا. فكـرت فـى مكـان نكـون كلنـا فيـه معاهـا. مـاكنتش أعـرف إن حكايـة المولـد دى هاتوصـلنا لكـل ده. تعـال. لازم نعمـل حاجـة. بـدل مـا نسـيبه يلعب بيها، نخليه يلعب برضه ! "

فردوس: - " إيه كورة ؟ معاناش. "

سلوى : -" نتسابق "

فردوس : : " ولما يجرى بيها بعيد نبقى عملنـا إيـه ؟ "

غارب : - نلعب أفلام. "

فردوس : - " لعبة جماعيـة مش ممكن يفلفص منهـا. "

غارب : - " ومافيهاش مجهود عضلى ، يعنى مش مرهقة للبنات. إيه رأيك يا أستاذ ؟ "

أنا : - " لأ. سطحية أوى. ومش جديدة "

غارب : - " الحق على إنى بحاول أنقذ عزة علشانك ! والله أنت ما تستاهل ! بطل تعيش فى دور الحكيم وانقذها أنت لو تقدر. خلاص، عشان لعبة مش جديدة نرفضها ؟ " أخذ نفساً عميقاً ثم همس فى أذنى " اعتبره عمل إنسانى ياأخى. نطمن على عزة ونخفف شوية من توتر البنات. " أسرعت فردوس للحاق بعزة وسلامة.

امتنعت عن الاشتراك. استثمرت سلوى الوضع لصالحها. قررت ليتعادل الميزان بدونى، أن تكون هى قاضى اللعبة. وتحسب نقاط المتسابقين. تطرد من تشاء وتبقى على من تشاء. واستمتعت بذلك حقاً.

(٤)

فـى البدايـة كـان الأمـر يبـدو عاديـاً ، لأن مـن طبيعـة المولـد أن يكـون صـاخباً وأن يـدعو النـاس للتخـبط والانصـهار بـين المجمـوع. وهكذا كـان غـارب ، إلـى جوارنـا ثـم يقفز فجـأة ليشاهد ذكراً أو راقصة أو مراجيح. ثم يعود إلينـا. كـان يصدر أصواتاً صـاخبة كأنـه يعوى. وبدلاً من أن يعيد للحيـاة مرحها. كنت أشعر أنه ينبؤنا بموت قريب.

كـان يختفـى فجـأة خلـف الـذكر. وكانـت سلوى وسـلامة يسـخران. ثـم يعـود ليحكـى لنـا مغامرتـه. ويختفـى مـرة أخـرى خلـف الراقصـة فيحييـه سـلامة : " هو ده الكـلام ". فتنظر لـه فردوس بازدراء ثم تلتفت إلى عزة وتعود بنظرتها باحثة عن غارب مرة أخرى. يعود إلينا غارب فيمتعنا بحكاياته عما حدث أمامنا ورأيناه بأعيننا ولم يكن ممتعاً بهذا القدر. كنـا ننبهر بـه وكانت عزة تبتسم فيقطع سلامة الحديث ساخراً محقراً من أمر غـارب الـذى يهـرب مـرة أخـرى ليشـارك الأطفـال دوامـة

المراجيح. نراه يعانقهم ويرفعهم فى الهواء فيصرخون فرحاً. وأخذت الأرجوحة تعلو وتهبط حتى لم نعد نراه فى صعودها وهبوطها وقلنا أنه سيعود ليحكى لنا. لم يهتم سلامة كثيراً وأخذ عزة ليفرجها على بقية المولد. واحتضنهما الزحام. وجلست أنا مع فردوس وسلوى فى خيمة معدة للشاى. إلى أن جاء الليل وعاد إلينا سلامة بعزة ، لكن غارب لم يعد. كلما مرت ساعة من الليل كانت عزة تردد : " أنا خايفة " وكانت سلوى تتكور وتنكمش فى الركن وكانت فردوس تروح وتجئ كلبؤة تخاف على صغارها من دخول الليل. "إيه ؟ هانسكت ؟ هانسيبه يروح ؟ طيب راح فين ؟ كان المفروض يرجع بدرى. هو عارف إن المفروض نرجع بدرى. مش ممكن يكون تاه. ممكن يكون تاه ؟ شحطين معانا ماحدش قادر يهز طوله ويروح يدور عليه ؟ أنا هاروح. ؟

قالت سلوى : - " أنتي اتجننتى ! الساعة كام دلوقت ؟ عاوزة حد يخطفك إن شاء الله ؟ ولما أهلك يسألونا نقول لهم إيه ؟ اتخطفت ؟ "

انفجرت عزة فى البكاء ، فأخذها سلامة بين ذراعيه وأخذ يكرر لها ألا تخاف. التفتت إليهم فردوس : - " ده وقت أحضان ! "

(٥)

إظلام تام فى الداخل والخارج. فقط لمبة جاز يتوتر شعاعها الخافت عند التقائه بأطراف وجوهنا فيحيلنا أشباحاً تعيش فى كهف بعيد جداً عن مناطق الحياة.

كانت شعلة اللمبة تضىء بعض ملامح وجوهنا ، وكان علينا ليتعرف كل منا على الآخر أن يستكمل من ذاكرته ملامح الوجه المقابل.

سلوى : " كان لازم آجى معاكو ؟ "

فردوس : مش أنت اللى قلتى أوه ياى عاوزة أغوح ؟ "

سلوى : بتتريئى على ؟ ما أنت ما لقيتش أب يحكمك. "

فردوس : " بابا الله يرحمه أشرف من أبوكى ألف مرة. تلاقيكى بتتمنى لابوكى الموت عشان ما حدش يلمك. "

عزة : - " حرام عليكو كفاية ! "

فردوس : " عزة معاكى فلوس نروح إحنا " ؟

عزة : " لأ ... (تنظر لسلوى) "

سلوى : - " طمعانين فى انت وهى ؟ ماعاييش. بدل ما تبصيلى اسألى الواد الغنى اللى حوطى عليه. "

(عزة تنظر إلى سلامة)

سلامة : - " مش صرفتهم على فسحتك ؟ عاوزة منى إيه تانى ؟ أبيع هدومى ؟ "

يسود الصمت المكان. تقطعه عزة بنحيبها المتواصل. تتذبذب اللمبة ويقترب جازها على الانتهاء. عندما كانت عيوننا تتلاقى سرعان ما كنا نتجه بها إلى الأرض ، أو إلى فتحة الخيمة. بينما بقيت فردوس تروح وتجئ.

لم يتجه إلى أحد بالسؤال عن نقود. ربما كان ذلك أفضل لأننى لم أكن أملك منها شىء تقريباً. لكننى شعرت بعزلة وإهمال لوجودى ، فأعزيت ذلك إلى أننى كنت بكاملى مغروساً فى الظل. وربما لم يستطع أحد أن يرانى.

ظهر شبح عند فتحة الخيمة. اندفعت إليه فردوس، فسقطت لمبة الجاز ، وصرخت سلوى صرخة قصيرة حادة ثم تكورت أكثر. كان غارب.

قالت فردوس : - " ماهو لسة بدرى ! "

وقبل أن تكمل جملتها كان قد سقط على الأرض مغشياً عليه. كانت ملابسه متسخة ، وقميصه ممزق عند الصدر والكتف وعلى وجهه جروح كأنها لطشات مطواه.

(٦)

لما تأخر الوقت ، نامت سلوى فى الخيمة. حاولت أن أغمض عينى. كانت عزة لاتزال تبكى وتهمهم بكلام غير مسموع. وسلامة الذى أصابه الملل يكرر لها ألا تخاف. أما فردوس فقد سهرت بقية الليل على تضميد جراح غارب.

أثناء النوم همست سلوى فى أذنى أنها تخاف أيضاً. لكننا فيما بعد ، عندما كنا نجلس على الربوة الخضراء ، كانت تأبى أن تعترف.

فى الصباح كان غارب على ما يرام. لم نجد فردوس. قال غارب أنها ستعود بعد قليل: " تفتكروا البنات ممكن ترجع لأهلها وش الفجر ؟ وحتى لو قدرت ، مافيش فلوس كفاية لرجوعهم كلهم. فردوس راحت تجيب فلوس من ماما. وكل واحدة تقول بقى إنها باتت عند التانية .. إنها كانت فى

المستشفى .. أى حاجة. المهم يرجعوا. فردوس ما تعرفش حاجة. أنا بعتها بورقة مقفولة."

عادت فردوس بعلبة بها مال ومصاغ وورقة مكتوب عليها " راجل يابنى ".

خرجت البنات لاستقبال الفجر.

قالت عزة :

-أنا مش ممكن أروح كده. أنا خايفة .. "

زعق سلامة فى وجهها وهو يشعل سيجارة :

-" هو إيه اللى حصل يعنى ! "

- " مانتاش عارف إيه اللى حصل ! "

- " طيب ما تقولى كده سمعينا. "

- تنظر عزة إلى الأرض ثم تنهار فى البكاء.

- نظرت فردوس إلى سلامة ثم أخذت عزة فى حضنها :

- " أنا مش ممكن أسيب عزة فى الظروف دى. هابعت لماما إنى فرحلة أو أى حاجة."

قالت سلوى :

-" بما إننا معانا فلوس دلوقت ، ما تيجو نسافر ؟ "

فردوس :

- " وماما ، وأختى مين تحمل مسؤليتهم ؟ "

سلوى :

- بطلى خوف بقى ! فيه حاجة اسمها حرية. وبعدين انت قلتى إنك هاتفضلى مع عزة. وعزة مش مروحة."

تنظر فردوس لعزة فتنهار عزة فى البكاء :

- " ماقدرش ! ماقدرش!

(٧)

عاد إلى ذاكرتى كلام سلوى بالأمس " أنا خايفة . لو رجعت البيت أبويا هايضربنى بالصرم ومش بعيد يقتلنى " أهلها صعايدة " مهما طلعت أو نزلت هايفهموا الليلة دى غلط كانت تضغط جمسها بى كأنى جزء من الأمر الواقع " تعرف ، اللى حصل ده جه على هوايا. من زمان نفسى أسيب البيت " التصقت بى أكثر بينما تكمل بصوت يتلون فى غنج " بس كنت هاجيب فلوس منين ؟ أبيع نفسى يعنى " أنا بنت شريفة. قلت يمكن ربنا يحط فى سكتى واحد يطلع ابن حلال ويتجوزنى. الصدفة دى بتاعة ربنا مش كده " ؟ أعطيتها ظهرى وقلت " تصبحى على خير " وشعرت بها تتململ فى الفراش. تمسح بيدها على كتفى. تسكت. تعيد الكرة.. تتقلب وتتكور فى نفسها ثم تنفجر فى البكاء. بينما كنت أفكر أن غارب لم يحك لنا بعد عودته عما حدث له. ولم تزل هذه اللحظات من حياته غامضة بالنسبة لنا جميعاً. لكنه بعد ذلك كان أكثر مبادرة. حتى أنها

صارت هواية عنده أن يدخل نفسه فى المواقف المهلكة. قال لى ذات مساء : " ماتخفش على ، أنا بسبع تروواح ، تحب أثبت لك ؟" ثم قفز فى الشلال واختفى فى لمح البصر. ولم يظهر بعد ذلك أبداً.

(٨)

قواعد اللعبة

فيلم :

تأخذ اليد اليمنى شكلاً اسطوانياً فى مواجهة العين ، واليد الأخرى مغلقة قرب الأذن تتحرك على شكل دائرة.

فيلم عربى :

نفس حركة الفيلم. ثم رسم دائرة فوق الرأس بالسبابة والإبهام من كل يد.

مسرحية :

اليدان تستقيمان أمام الوجه ثم تنفتحان كأنها ستارة مسرح تنفتح.

عدد كلمات الفيلم أو المسرحية :

عدد الأصابع المفرودة قبل البدء فى التمثيل.

ألف ولام :

تتقاطع أفقياً سبابة اليد اليمنى مع سبابة وإبهام اليد اليسرى.

حرف عطف :

بسط اليد اليسرى أفقياً وتمسح اليد اليمنى عليها كأنها تلاطفها.

حرف جر :

اليد اليمنى مغلقة تحاكى سحب شىء تجاه جسد الممثل.

فى :

اليد اليمنى مضمومة فى شكل اسطوانى تدخلها اليد اليسرى مضمومة أيضاً فى تأكيد على الدخول.

من :

مثل فى مع التأكيد على الخروج.

إلى :

اليد اليمنى مفرودة رأسياً تتحرك لأسفل ولأعلى.

فوق :

اليد اليمنى فوق اليسرى ولا تلامسها.

على :

اليد اليمنى فوق اليسرى ، وتلامسها.

(٩)

أمرت سلوى ، كقاض للعبة ، أن يتكون فريق من عزة وغارب والآخر من فردوس وسلامة. واستطاعت هكذا أن تقيم سلطاتها على غارب الذى فكر أن يفصل فريق البنات عن الأولاد حرصاً على عزة ، واستطاعت أيضاً أن تفرق بين كل رجل والفتاة التى اختارها لترضى وضعها الحالى وقد اعتبرت قرارى أن أنسحب من اللعبة تعبير عن انفصالى عنها ، عجرفتى، تعالى الزائد ..

همست فى أذن عزة باسم الفيلم الذى أملاه عليها سلامة لتمثله لغارب.

عزة : - " ... "

غارب : - " فيلم. عربى ؟ "

عزة : - "..."

غارب : - " عربى. "

عزة : - " ... "

غارب : - " من كلمة واحدة. فيها ألف ولام؟. "

عزة : - " ... "

غارب : - " ألف ولام. "

عزة : - " ... " (تتلفت حواليها. برقت فكرة: علمت على سبابتها اليمنى بخط أفقى. رسمت بكفيها بطناً كبيرة فوق بطنها.)

سلامة ساخراً : " إيه ، بطنك ماله ؟ إيه حامل ؟ عندك مغص ؟ أنت حامل طيب ؟ عيل ؟ ابنك ؟ سرتك ؟ مالها ؟

وعزة تحرك رأسها بالنفى مع كل كلمة منه. داخت عزة ، وسار جسمها يترنح بكامله يميناً ويساراً معلناً النفى. شرحت مقصدها من تقسيم سبابتها عقلات : دى معناها. تلات عقلات

تبقى إتلات الكلمة. إذا كانت تلتينها " بطن " تبق " الباطنية ".

وهكذا اشتركت عزة فى صميم اللعبة : أضافت إلى دستورها قانوناً.

الفصل الثاني

الحب

(١)

فندق لا يطل على البحر. " رخيص. قليل الزوار. لن يشتبه فينا أحد " : خطط سلامة. حجرة البنات وأخرى للبنين .. وحجرة سرية ابتسم سلامة فى خجل عندما افتضحنا أمرها وقال أنه يستقبل فيها عزة.

كان يستقبل فيها البنات بالتوالى. لم يكن يبيت معنا إلا لو صادفتهن الدورة جميعاً فى ذات الوقت ، وهذا غير محتمل طبعاً. كان سلامة ما يزال نبيلاً لا يدخل لدرجة أن يسبب لهن مشاكل : " البنت اللى اتنازلت للدرجة دى وهى مش فاهمة حاجة ، تقدر تربطها جنبك. لسبب بسيط هو إنها مش قادرة تفكر. إما قلقانة لإن الدورة لسة ماجتش فتفضل لازقة فيك علشان لو طلعت حامل تتجوزها ، أو فرحانة لإن الدورة جت فتجرى على حضنك لأنك إنسان نبيل وماغشتهاش. وفى كل الحالات ، إنت الكسبان. "

وتوطدت معرفتى بغارب بحكم وجودنا وجهاً لوجه " لأسباب خارجة عن إرادتنا ". فى البداية كان المساء سجناً بين رجل يتنقل بين محطات التليفزيون رافعاً من زرار الصوت، وآخر مصاب بأرق دائم ويحتاج للسكنية حتى ينام. فيناكفني غارب:

- " يا راجل عيش واتفرج " !

- " ممكن تطفى النور ؟ "

- " لأ ! "

- " مش كفاية التليفزيون والع ! "

- " باخاف من الضلمة يا أخلى ! باخاف من العفاريت !

وينزع غارب ملاءة السرير ويلبسها كخيمة " همم .. همم .. " ثم يرفعها " إيه رأيك أنفع ؟ " أحكم الغطاء حولى متقززاً. أتقلب كثيراً دون أن أنام. عندما يتملكنى الملل أخرج

إلى الشرفة وأحسده على شخيره العالى. ابتسم أحياناً لصغر عقله وسذاجة خوفه. لكن أحياناً ، عندما كانت تمر على لفحة هواء بارد فجأة ، يرتعد جسمى كله ويرتفع شعر رأسى خوفاً. أحسده على اطمئنانه للنوم. ويصبح شخيره المزعج هذا الشىء الوحيد الذى يؤنس أرقى.

يستيقظ فيحكى لى أحلامه بالتفاصيل المملة. يفرض نفسه على دون أدنى اعتبار لحالتى النفسية. لدرجة صار صوته وحده يستفزنى بغض النظر عما يقول. لكننى ما إن أفلت منه إلى خلوتى ، إلا ويطغى حضوره فى ذهنى على تأملاتى الخاصة :

كيف استطاع أن يحفظ كل هذه التفاصيل وهو نائم ؟!

إنه لا يهدأ أبداً لا ليلاً ولا نهاراً ، مستيقظاً أو نائماً. هل من الممكن أن أسمى هذه الحالة أرقاً من نوع ما ؟

عندما دخلت عزة الخيمة المنصوبة أمام البحر ، كان الغروب قد حل ، وكنت أجلس على عتباته ترفعنى موجاته

وتنزلنى بهدوء. أتى إلى غارب بينما ذهبت فردوس إلى داخل الخيمة. كانت فرصة سلامة وسلوى أن ينفردا ببعضهما. خطر ببالى أن سلوى لابد الآن أصابها الزهو لأنها استطاعت أن تقتنص سلامة ابن الناس من عزة العبيطة. ربما لا يكون مجرد " ابن " ناس فى نظرها ولكن أيضاً " ابن حلال "..

-" مالك ؟ " قال غارب.

جلس إلى جوارى. أخذ حفنة من الرمل المبلول وفركها فى يده ، ثم تركها تتسرب ببطء من بين أصابعه.

-" مافيش. " قلت مختصراً.

-كانت عيناه المثبتان على تربكاننى ، واختفاء اندافعه الذى اعتدته منه. عندما أدرت رأسى بعيداً عن نظرته ، استطعت أن أبدأ :

" حاسس أن ده مش مكانى. لازم أرجع. "

" وتسيبنى لوحدى ؟ "

...غارب يتحدث عن الوحدة !...

قلت ضاحكاً : " أديكو بتلعبوا مع بعض. مش أنت صاحب اللعبة ؟ "

خرجت عنه ابتسامة مخزولة.

قلت : " أنا حاسس إنى ماليش حد لا هنا ولا هناك. "

- " وعزة ؟ "

هالته حدة نظرتى عندما نطق باسمها. لقد فوجئت مثله بانزعاجى. لكنه سرعان ما استرجع دفء ملامحه كمحارب يستعيد سلاحه. جلس فى مواجهتى داخلاً فى البحر وأمسك بذراعى :

-" أنت مش وحيد. أنا معاك."

ضحكت للحل السهل. وطرأ على أن أكسر هذا الدور المفتعل الذى يقوم به تجاهى. هو؟ من يكون لكى يعلو على ويحتوينى ؟

-" مش يمكن ما كنش وحيد ، وكل الحكاية إنى مختلف عنكم ".

-" كلنا مختلفين عن بعض. ولوحدنا بشكل ما. "

ها هى جملته تصفعنى من جديد. ويساووينى بالجميع. لم أجبه. عندما شعر أن حديثى عن الاختلاف لم يكن يحتاج إلى إجابة ، وأنه كان حكم على الجميع بالانسحاق أمامى ، تجمدت ملامحه واقتبس طريقتى فى السخرية اللامبالية :

-" انت مش وحيد. انت فريد !"

ثم استعاد ملامحه واستكمل بصوت دافئ متفهم.

-" ولا تحب اندهلك " يا أستاذ " ؟

ثم دخل فى الماء.

(٢)

لا تكون الوحدة إلا عندما يكون هناك بشر. ويكون هناك ما يعوق الانتماء إليهم : إما لأنهم لا يستحقون ، أو لأنهم يرفضون (وفى هذه الحالة كان السببان متوفرين) ، أو لأنهم يستحقون ويقبلون ، لكنهم أمر واقع ، وأنت تريد أن تختار. وفى هذه الحالة أيضاً أنت لا تختار. إنهم بشر عرفتهم بالصدفة ، وقدر لك أن تعاشرهم دون غيرهم. الوحدة موجودة دائماً إذا ، لأن كل التقاء ببشر لا يكون إلا من تدبير الصدفة ، الصدفة وحدها.

بعد رحيل غارب شعرت بها. عرفتها أول ما أتت ، الوحدة. وأنها مؤلمة. لم أكن أرغب فى أن أبوح بذلك لأحد. وانعزلت عنهم قبل أن يتحولوا فى رأسى إلى مجرد أدوات للخروج من الوحدة: عكاز ، طوق نجاة، .. الخ.. فساعتها لن أعاملهم كبشر أراكم داخلى شخصية كل منهم وأعامله على

معرفة بها. سيصحبون سواء. وسيكون على كشخص وحيد أن أترك وحدتى وأنصهر فى هذا السواء.

عندما كان غارب موجوداً ، كان هناك من أمارس وحدتى معه. كانت وحدة مشبعة. أو ربما كان غارب من أحقق فى وجوده اختلافى. ربما كان على حق " أنت مش وحيد، انت فريد " هل كان يمازحى فعلا. عندما كان حاضراً ، كنت أشعر أننى في وحدة، ولا أحتاج للانتماء إلى أحد. وهنا يكمن التفرد: الوحدة المرغوبة لذاتها وليست رد فعل لإحباط أو نبذ. الوحدة غير المصحوبة بصراع مع نقيضها. ربما كان لابد لى يا غارب أن أمر من التفرد إلى الوحدة لكى أدرك معنى التفرد. ربما كان هذا أيضاً واحد من الدروس التى علمتها لى دون أن أدرى. انت كنت تدرى. عيناك كان فيهما يقين.

(٢)

يا دنيا يا غرامى

فردوس:

- أنا ما بعرفش أحب.

سلوى:

- **زمان وأنا صغيرة بيتنا كان كل يوم فى حفلة. بيرة ورقص... كان عندى سبع سنين. بابا قال لى دوقى البيرة دى حلوة. طلعت مرة أوى. رجعت. وما باقيتش أثق فى أى كلمة يقولها بابا.**

عزة:

- ماما وبابا ما تجوزوش عن حب. ماما اترتب على الحلال والحرام. بابا لما عاكسها ندهت له العسكرى. قال فى نفسه دى عياشة واتجوزها. أكيد ماما ما قدرش تنام معاه بسهولة. مسكينة يا ماما.

فردوس:

- بابا كان يتحب. من صغرى وأخذنى معاه الشغل. كان شريك فى مصنع. كل العمال يحبوه. لكن شركاؤه كانوا متغاظين منه غيظ ! كان عاوزنى أخلفه فى الشغل. كان بيدخن سجاير سوبر.

عزة:

- لما بافكر فى ماما باحس إنها أكيد أخدت صدمة. أصل مش معقول كل اللى اترتب إنه حرام، فجأة كدة وبورقة ممكن تنقطع أو تبوش بقى حلال. وواجب كمان. هى عملته تأدية واجب فعلا. عمرها ما حست بحاجة.

سلوى:

- ماما بتقول إن أنا جيت وجبت الرزق معايا ، عشان أبويا ساب الموالد. طول عمرى رقيقة. كل الناس قالت كده. سلامة بقى، بيقول إنى شقية، وعيونى بتلمع زى القطط.

فردوس:

- ماما باعت شبكتها عشان تدخلنا المدرسة. كان لازم ابقى معاها دلوقت.

عزة:

- امبارح كان معايا. ضربنى وبهدلنى. متوحش. حد معاه سجاير.

فردوس:

- تنفع سوبر؟

عزة:

- **(تشعل سيجارة وتتبادل النظرات مع فردوس) زمان وانا صغيرة، كان عندى عصافير. كان لونهم ابيض. أو يمكن الذاكرة بتشيل الماضى فى الأبيض والأسود... أما الحاضر والمستقبل. كفاية عليهم أوى يبقو رمادى. لكن كان فيه وردة. وردة حمرة. الحاجة الوحيدة اللى شايلاها بلونها الطبيعى.**

سلوى:

- **كل شىء زمان كان ابيض وأسود. صح وغلط. وما فيش أى حاجة لسة ما قيموهاش يسيبوهالنا نشوف احنا إذا كانت صح ولا غلط.**

فردوس:

- انا كما كان عندى عصافير. بس عمرى ما عرفت مين الراجل فيهم ومين الست. كان شىء مزعج جدا وشغلنى كتير. ساعات كان بيتهيألى أن الاتنين من جنس واحد علشان كدة يبتناقرو طول النهار. العصافير فى التليفزيون كانت بتبوس بعض. وكنت زعلانة أوى: هو عشان العصفورتين بتوعى عصفورتين ما يبوسوش بعض؟ طيب مانا بابوس ماما.

سلوى:

- فاكرين عبد السلام النابلسى لما كان اسمه غراب وكان مربى عصافير فى البيت. كل لما كنت اشوف الفيلم ده كنت أتمنى أكون الست اللى كانت ساكنة قصاده.

فردوس:

- ايوة: اول ما شفت غارب فكرنى بيه. يمكن لأن حروف الاسمين متشابهة؟ تفتكرو هو ده التناسخ؟ انا شخصياً

كان نفسى اكون عصفورة، لغاية ما شفتهم بيتخانقو. بعد كه ما جبش عصافير تانى.

عزة:

- كانت العصافير هى اللى بتجيلى. مرة جت يمامة وعششت على شباك أودتى. كان جوزها قبل ما يدجل عليها يغنى ويتقدم خطوة خطوة. مش المسروع ده؟ ... فرحت اوى لما خلفو كنت بابص على العيال من ورا الإزاز. وهم كمان كانوا بيبصولى... عادى... من غير خوف. لما كبروا فضلت اليمامة تيجى على العش. اد ايه كانت وحيدة. كانت كل شوية تحوم حوالين العش، تقف ، تنضف ريشها وتغنى. اليمام عارف يعنى إيه ذاكرة. يعنى إيه الحياة مالهاش معنى من غير شهور مارس وابريل ومايو، ومستعدين يدفعو بقيت عمرهم فى كل سنة فى انتظار التلاث شهور دول... لو كنت يمامة، كنت أكيد عمرى ما هاخرج من العش.

فردوس:

- وانا لو كنت ذكر يمام ياستى أو عدك انى ما ادخلتش عليكى غير بالراحة خالص. وارحمك من المسروع ده! هههههههههه...

كانت الشمس حمراء تميل إلى البنفسجية. وكان البحر قد تحول إلى الأزرق الغامق. لم يكن غارب قد عاد بعد. ظهر القلق على فردوس. وظهر ظل غارب آتيا من البحر. وقفنا، بعيون مفتوحة. خطاه بطيئة نقطة سوداء بين الأزرق والبنفسجى تقترب وتستطيل. غابت الشمس والتحمت السماء بالأرض متفقتين على اللون الأسود. اختفى غارب مرة أخرى، فى اللون.

كانت عيناه واسعتين وبللورتين كمن وجد السلام وطفت روحه. لكن فردوس مازالت قلقة بشأنه. كان يحكى لنا بهدوء كيف فتح عينيه فى الماء ورأى اسماكا غريبة يمكنها أن تتحدث معه عن طريق الوانها المشعة. ألوان تتغير كل لحظة لكنها دائما مشعة. حدثنا عن قانون الثابت والمتغير. مثله لنا

بالتنفس لم يكن ليمكن للإنسان أن عمره الذى يجرى باستمرار فى طريق رأسى، بدون التذبذب المستمر بين الشهيق والزفير، قال أنه كاد يلامس الحد الفاصل بين السماء والبحر لولا أن الشمس ابتلعت نظرته باحمرار فصار لا يستطيع أن ...

- " وها يفيدنا بإيه ده كاه ؟ " قاطعته فردوس ودخلت الخيمة.

كنا جمعيا محلقين حول غارب كبرو الحديد أمام مركز الجاذبية.

فكرت أن دور غارب الحقيقى هو أن يكون هو راوى هذه القصة ولذلك فقد مسخ طعمها وتخبطت شخصياتها بعد وفاته.

(٣)

لم تكن خيمتنا تظهر فى الظلام ،لأننا لم نكن قد أضأنا لمبة الجاز بعد. قالت فردوس.

- " الفلوس خلصت. فاضل الذهب".

- " ومش بعيد اهلكوا بلغو عن غيابكم والبوليس ورانا". قال سلامة

تنهدت فردوس واشلعت اللمبة.

اندفع غارب: " " خايف من البوليس ومش خايف على البنات من الجوع "

مسحهن سلامة بنظرته ثم : " لا ما تخافش البنات هاتجيب فلوس كويس أوى. امال انا كنت بامرنهم على ايه ؟"

ارتبكت نظرات سلوى وفردوس وكمشتا فى الركن. كانت عزة كامشة منذ بداية الحوار، تحرك اصبعها فى الرمل يحدث زوبعة فى الرمل ويسقط. قالت بصوت هامس:

- " نبيع الدهب ".

- ومين اللى هايتطوع لده ؟ " أجاب سلامة محاولا أن يكسر دفتها ويحيل البنات إلى غرضه الذى لم يخطر على بالنا ابدا: نشغلهم... ؟ لم يخبرنا بهذه الخطة.

فررت من ثرثرتهم إلى البحر. رأيت الخيمة كصوبة تشتعل من الداخل.

- " ما تروح يا خويا أنت تبيعه " قال غارب لسلامة. وقبل أن يكمل جملته كانت البنات كلها تفاجئه:

- " لأ "

كان هدير البحر يطغى احيانا على أصواتهم، وأحياناً هواجسى الخاصة.

وصلنى صوت غارب يؤنب فردوس : " الحق على عشان عاوز أحفاظ عليكى".

صوت فردوس : " على الأقل سلامة راجل واقعى ".

صوت سلامة: " يا أخى لو جبان ما فيش داعى تدارى جبنك فى كلمة بخاف عليكى !"

وتملا دماغنا بحواديث لا راحت ولا جت ! "

كانت أشباحهم تقف وتقعد ، سوداء خلف قماش الخيمة. ظلال تتذبذب فى حركتها العصبية الراقصة. وجسمان لا يتحركان فى قطبى الخيمة ككفتى ميزان.

(٤)

اتـذكر المولـد فـأدون اننـى لا أحـب الزحـام والحـر والصـخب. تبـدو لـى هـذه الأشـياء كأنهـا دوامـة، أو عناصـر كـابوس مـزعج وذلـك لأننـى أحـب الحيـاة: أن يعمـل عقلـى، أن ترى حواسى" ما وراء " ما يمكنها أن تراه تسمعه أو تلمسه. لكن كل الذين تنتابهم هيستيريا الرغبة فى الخلود يقعون فى هـذه الدوامـة وهـذا الكـابوس. انهـم يعتقـدون أن التفاعـل مـع الحياة يتلخص فى الالتحام المباشر بها. التحاما يجعلهم أحياء ما دامت الحياة موجودة. وبما أن الموت حقيقة يرونها تحدث كـل يـوم ولا تحتـاج دلـيلا أوضـح مـن ذلـك لإثباتهـا، يتمسـكون بفكـرة كالبعـث أو كالتناسـخ. وكلمـة " مـا وراء " لا تـرتبط عندهم إلا بالموت ، ما وراء الموت: بعث أو تناسخ. فالحقيقة التـى يراوغونهـا هـى أن المـوت هـو مـا وراء كـل شـىء تـراه الحـواس. يعشـقون البحـر والشـجر والسـماء بألوانهـا الجذابـة. يعشـقون الجبـال والصـحارى والشـمس الحارقـة التـى تبخـر

ارواحهم بدفئها. يحبون الناس والزحام والضجيج. يحبون الحفلات والموالد والأفراح ، والمغالاة فى الضحك والبكاء. يحبون كل شىء كأنهم سيفقدونه لحظة أن يروه. ولذلك فهم يعتبرون الحياة حاضرا مستمراً ، لأن الدخول فى فكرة الماضى والحاضر والمستقبل ستجعلهم يعترفون أن للزمن دورة يمكنها أن تنتهى.

ولأنهم لا يرغبون فى التسليم بالموت فى أية صورة من صوره، يحاولون أن يروا الجانب المشرق فقط فى أى شىء أو شخص أو موضوع. وهذا بديهى. بما أن العكوف على استخدام الحواس وحدها دون العقل عادة ما يوقع المرء فى ذلك الفخ الجمالى الذى تصنعه له. فيلبس كل ما يراه ثوب التدليل على سعادته وشبقه ما زال تجاه الحياة. وهكذا يدخلون دائرة الفناء. فهم ينظرون إلى الطبيعة بإجلال دون معرفة أى شى حقيقى عنها ويدورون فى فلكها دوران العابد المتصوف حول اله حتى الفناء. ويتحول الإله إلى هاجس يراودهم كل لحظة حتى لا يعود إلى وجود إذا لم يقدسوا الجمال. أو يغرقوا

فـى الصـخب حتـى يتحولـوا إلـى مكـان يقـيم عليـه الضـجيج مسرحا.

واذا أحبـوا لا يعرفـون لمـاذا أحبـوا، ولا يريـدون أن يعرفوا ، يحبون الناس لأنهم بشر مثلهم يتشاركون معهم محنة أن يموتوا دون تمييز بين إنسان وآخر كـأنهم قطيـع ماشية، أو كأنهم غير موجودين أصلا: مكان يفرغون فيه احتياجاتهم لأن يحبوا ، لان يعطوا، وتبقى عطيتهم بعد موتهم. ليتناسخوا فيها ويصير الخلود.

لكن هذا لا يعنـى أنهم يحبون الحياة. مـا يحبونـه هو الفنـاء فيهـا. بمـا أن حياتهم هذه لا تدور إلا حول محور واحد هو الموت. الخوف منه/ الحقد عليه، انكاره، الالتصاق بكل مـا هـو محكـوم عليـه بـنفس المصـير، ربمـا يكونـوا كثـرة فـى مواجهتـه.. التمسـك بحيويـة الـروح التـى سـيداهما المـوت، وحيوية الجسد.

لكنهم فى الحقيقة يحبون الموت أيضاً. ويرون لحظة حدوثه لحظة خلاص من كل هذا التذبذب. والا ، فكيف نفسر

حبهم الشديد لحرارة الشمس التى تبخر ارواحهم والنوم عميقا فى صمت على النجيلة الخضراء؟

يبدو أن هؤلاء البشر هم الابطال المأساويين لهذا العصر. لكن ذلك لا يدعو للاشفاق عليهم. على العكس. فهم متأخرون لدرجة لا يدركون معها أن عصر المسرحيات التراجيدية قد انتهى منذ قرون. وان الحياة لا يمكن أن تبدأ ما دام الموت عدوا أو مخلصا. فالموت ببساطة ليس شخص يمكنه أن يتخذ موقفا عدوانيا كان أو متعاطفا. أنه شىء يحدث بمحض الصدفة ، أو ربما يختار الإنسان حدوثه محاولا الانتحار. ولا يستطيع الموت ساعتها أن يقبل أو يرفض هو نفسه ليس له أية علاقة بالموضوع.

لكن غارب كان يكابر. طرأت على رأسه فكرة فجأة، وهى أنه معشوق الحياة. إن عارضته، لم لا يعتبر هذا تمنع المحبين. شقاوة منها. وكمحب مخلص، كان يقبل من الحياة كل ما تلقيه عليه عرضا فى الطريق حتى العراقيل والمحن والصدمات، دائما يكابر ويحبها أكثر. وفجأة أيضاً فكر أن كل

ما هو سيء فى الحياة لا يصدر عنها. إنها جميلة وحبيبة، لكن الموت الذى يجثم على أنفاسها يجعلها احيانا عصبية مضغوطة وساخطة. وبما أنه الحبيب المخلص المتفهم فعليه أن يخلص الحياة من عدوها وعدوه أيضاً. قرر غارب أن يتخذ الموت عدوا وأن يذهب ليصارعه حتى يقتله وتخلص الحياة له بعد ذلك مرتاحة نائمة مطمئنة على صدره القوى.

(٥)

عادت فردوس تلهث : " اقلعوا اقلعواّ وبدأت بخلع ملابسها.

عانقها غارب ليخفى جسمها عنا ، فبدأت تفتح أزرار قميصه ويبدو أنها هذه المرة هى التى ذهبت وتعود الينا بالحكايات بعد أن طال القلق عليها:

- " ما فيش محل كان راضى ياخده. بيقولوا مسروق. واحد وافق بس بسعر رخيص أوى. وحذرى لو ما وافقتش هايبلغ عنى. اشتريت هدوم جديدة عشان نخفى اثرنا الخالص".

احتمينا جميعا بالظلام وبدأنا نخلع ملابسنا تحت وطأة ذعر فردوس الذى انتقل الينا جميعا. اخذت فردوس ولاعة سلامة واشعلت فى الزى المدرسى. رأينا بعضنا عرايا فى

اللهب. فهالنا صمت. ثم ضحكت سلوى ضحكة متغنجة ، تبعتها فردوس بأخرى خفيفة مستهترة. وضحكت عزة أيضاً. كأنها بينما تخلع ملابسها تخلع مع الملابس روحها القديمة التى بلت وطال الانتظار عليها. ضحكنا جميعا. غنينا وتراقصنا. تتصادمت أجسادنا صدفة احيانا وعمدا احيانا، بخجل أو بشبق، لكنها بلا حرج. وكان هذا هو اكتشافنا العظيم: نحن جميعا نحب بعضنا بعضا. لا تهم من تراقص من المهم أنه واحد منا وليس غريبا. لا يهم من التى تراقصنى، المهم أنها واحدة منهن وليس غيرهن. نحن معا، والآخرون هم الجحيم، لأنهم ببساطة يبلغون عنا، يريدون أن يفرقونا عن بعضنا يريدون أن يسحبونا إلى حظائرهم. أن نكون مثاليين فى البيت والمدرسة. اننا نعرف بعضنا أكثر مما يعرفوننا. ومن حقنا أن نختار.

كانت الملابس التى أتت بها فردوس قد بدأت تتطاير فى الهواء، وكنا نلاحقها. نطير خلفها. نقع فوق بعضنا ونضحك. نلاحق بعضنا أكثر من ملاحقة الملابس.

(٦)

عزة: - " باحسد الناس اللى ماعندهمش تطلع، اللى مش عاوزين يعرفوا من الدنيا إلا اللى يخص هدفهم وبس ، الهدف " الوحيد " اللى ما يعرفوش غيره. الناس اللى بتمشى مشوار حياتها زى الحمير ".

فردوس: " لمل بافكر فى حياتى باحس انى زي اللى دلق مية فى الشارع، لمجرد أن عنده حبة زيادة ممكن لو فضلوا يغرقوه. وفى نفس الوقت باحس أن المية دى هى خزينى الوحيد من المية الحلوة لو دلقته هاموت من العطش... اعمل ايه بحياتى " ؟

سلوى: - " عادة بيكون عند الواحد حاجة نفسه يحققها. إنه يكون مهندس أو صحفى أو حتى مدير... علمونا كده فى المدارس: لازم نكون " حاجة " كبيرة فى المستقبل.

ولغاية ما ييجى المستقبل، نتمرن، ونحاول. خمسة وثلاثين تلميذة بيحاولو يطلعوا الأولى. واللى سبق كل النبأ...

فردوس: " وكنا نغش عشان نطلع الأولى. لازم نبتكر حيل جديدة نخدع بيها المراقبين".

عزة: " أو حتى نغريهم ".

سلوى : " وعلى المبتدئات الانسحاب فورا، والا هايبقوا همه كبش الفدا، الغش مش حرام؛ الحرام هو أن المفتش يفقسك".

سلامة: -" والاولى طبعا ممكن تخمينها، بنت المدير أو أكبر مساهم فى تبرعات المدرسة... الخ "

سلوى: " والثانية هاتوصل بمجهودها. هاتتفق مع شلتها يذاكر كل واحد حته. هى، هاتذاكر كله ومش هاتغششهم عشان ال ايه " ضميرها انبها " والتالتة، هى اللى غششت أصحابها بس معلومات غلط وبكده تبقى كنستهم من طريقتها،

لكنها أقل خبرة من اللى قبلها، لأنها ضيعت من وقتها وغششتهم، كمان عرضت نفسها لاكتشاف المفتش.

عزة: - " وعلى الكل انهم يسألهم ويفخرو بيهم وقت تسليم الشهادات.

سلوى: -" بقية الأوائل من اللى بيمشو امورهم. واللى تغلب به العب به. ودى مهارات يحسدو عليها.

أنا: -" أحيانا بافكر فى البناء الرأسى اللى بيبنوه، هو مش أكتر من عامود لازم تنضفر معاه عواميد تانية علشان تتقام حيطة، وده اللى انا باعمله. لازم يكون فيه قوة دفع أولية: كل الأهداف بحيرات تصب فى مجرى تكوينى. وهاتفضل فى نظرى مالهاش قيمة لغاية ما تخدم انتباهى المستمر واختبارى الدائم للعلاقة بين مدى ايمانى بمبادئ ومدى جدواها فى العالم الخارجى. بعد كده تتساوى الأهداف.

فردوس: " دول فاكرين محطات الحياة أهداف، وكل واحد واقف عند محطته مش راضى يتتعتع ولا يشوف الدنيا.

يتشعبو. يعنى كل واحد يبقى شعب بحاله. يتداخل فى اللى بيكلمه، يستوعب محطات الآخرين.

فى الخيمة، نمنا مرهقين. تكومنا فى أحد أركانها ككتلة لحم واحدة تتقلب وتتداخل أذرعها وأرجلها الأربعة والعشرين. كانت سلوى تردد " لازم نسافر بكرة. لازم نسافر بكرة. ..." حتى ننما جميعا على صوتها.

(٧)

استيقظت ليلا، وجدت فردوس فوق غارب الذى يحتضنها، ودموع بلا صوت تخرج من عينيها إلى رقبته رغم نومهما. ووجدت سلوى وسلامة يتلويان معا دون صخب. عيونهم مغمضة أيضاً ، وعليها تعبيرات. نظرت إلى جوارى، كانت عزة على بعد سنتيمترات تنظر إلى وتبتسم. عندما نظرت إليها خبأت وجهها فى الرمل.

قبل الفجر استيقظنا على الرمال تدخل انوفنا. فتحنا عيوننا على عاصفة رملية تقتلع الخيمة من فوقنا. حاولنا أن نثبتها جميعا من الداخل ثم من الخارج لكن بلا جدوى. لم نكن نرى سوى بياض كامل. اختفى البحر، واختفينا. لا نسمع أصواتنا. الرمل يدخل افواهنا فنغلقها بايدينا. كانت فردوس تنادينا صارخة حتى انجرح صوتها. وعندما كانت تلمح شبح

واحد منا تحتضنه دون تمييز ملامحه ومعه تبحث عن آخر حتى تجمعنا فى حضنها.

نامت على الرمل. ركعنا حولها ودسسنا رؤوسنا جميعا فى حجرها. طوت رأسها فوق رؤوسنا وأحاطتنا بذراعيها. نادت أسماؤنا وأجبناها. إلا غارب. شعرت بدموعنا تبلل فخذيها فشددت علينا:

- " أكيد هايرجع. هى عادته ولا هايشتريها".

شعرنا بالبلل على رؤوسنا فعانقناها بالثمانية أذرع التى نملكها.

بدأت ثورة الرمل تهدأ. وظهر شبح غارب واقفاً على مقربة منا. ابتسمت فردوس:

- " حمد الله على السلامة".

- " حاولت أنقذ الخيمة... ما عرفتش".

هدهدته فردوس فى حجرها. قالت عزة:

" انا بحبك اوى يا دوسة... ".

وانضمت اليهم. انضممنا جميعا بالتوالى إلى ايقاع الهدهدة.

(٨)

هزات القطار ، بطيئة ممتدة تزداد سرعة وعنفا. تتحول البيوت والحقول إلى علامات على تاريخ قديم يستعرض نفسه بصورة بانورامية أمام العيون التى تشرد عبر النافذة، ولا تتساءل إلا عن المستقبل الوشيك. ماذا سيحدث... العيون يغطيها تعبير صاف وحزين. شىء كالحنين. كالأسى.. تتلاقى بغتة ثم تعود سريعا إلى النافذة.

تنظر إلى عزة وتبتسم. وعندما ألمحها ، تخفى عينيها فى خجل. كان هذا مؤلماً. حاولت أن انشغل عنها بالنافذة. والتفكير فى سبب الألم. كان سلامة يشاغل سلوى. فكرت أنه ربما يكون رهاناً بين سلوى وعزة. من منهما يستطيع أن يبعد أى منا – أنا وسلوى – عن الآخر. لو نجحت عزة سأتحول إلى مادة لسخريتهم أثناء الرحلة، ليس لاختلاف منهجي فى الرأى، ولكن لمجرد تمضية الوقت. وعند باب الوصول تعود

الحياة كما كانت بين عزة وسلامة. وكان هذا هو ما يسبب ألما. لكن سلامة عندما شعر أن عزة تنشغل عنه بى رفع صوته محدثاً سلوى:

-" كمان الحياة مش ناقصة الناس اللى عاملة نفسها بتفهم. الحكاية مش محتاجة فلسفة. الحياة ايه غير ضحك ولعب... وحب ولا إيه يا زيزى ".

-" آه .." أجابت عزة. تحت تأثير تنويم مغناطيسى ما وذهبت إليه.

لكنه لا ينومهن. إنهن يأتين إليه بمحض ارادتهن. أو ربما يكون للجنس عليهن تأثير المغناطيس. لكن هل هذا هو الحب؟ وهل ما أشعر به تجاه عزة هو الحب ؟ ما أنا متأكد منه هو أننى أشفق عليها كثيرا ، أشعر برغبة فى تحمل مسئوليتها، أكره سلامة لأنه غواها ولا استطع أن أصدق أنها تريده هو فعلا. لكن لم أرفض زواجهما، ولم أقبله أيضاً.

فكرت أننى ربما لا احب عزة، وان كل ما يجذبنى لها هو رغبتى فى أن اعيش فى دور عبد الحليم الأبدى: المحب الذى يعانى ولا يتزحزح عن موقفه مهما حدث. لكننى لست ما زوخيا إلى هذه الدرجة. فكرت فى الطرف الآخر ربما يجذبنى فى عزة أنها بريئة الملامح وشديدة الرقة مثل ذبيدة ثروت. لكن كل هذا راح وانتهى ما أن استدارت عزة إلى سلامة كالمرآة تعكس ما يدور فى قلب من تحدثه.

ربما يكون ما أشعر به هو احتياج لأن أحب، مثلما تشعر البنات برغبة فى التفتح على عالم الانوثة. سلامة يغوى البنات ويلبى رغبتهن. انهن لا يحبونه. مجرد احتياج. والاحتياج من شخص يولد نزعة للاغواء عند الآخر. والعكس صحيح. ربما يكون احتياجى لان أحب هو الذى دفع عند عزة غريزة ما تدعو إلى أغوائى. هذا أيضاً يسبب ألما. لكننى عندما نظرت إلى عزة، تحول الألم من أن يكون بسببها إلى أن يكون من اجلها. من اجل ابتسامتها الباهتة الشاردة كمن يقول لنفسه:" عاوزنا نرجع زى زمان ؟ قول للزمان ارجع يا زمان ! " كأن حنيناً ينتابها إلى علاقة حب لم تدخلها، وكان عليها

أن تصادفها فى الماضى. علاقة فارغ فى الذاكرة مكانها. فراغ يختل بسببه توازن الخاضر المتراص فوقه... الأشياء التى لا تحدث فى وقتها، يمكن لغيابها أن يغير مجرى حياة كامة.

"أديش كان فيه ناس، عالمفرق تنظر ناس، وتشتى الدنى ويحلو الشمسية... وأنا بأيام الصحو، ما حدا نطرنى."

لم لا أحاول على الأقل أن أصدق أن عزة تحبنى، تحبنى فى هذه اللحظة على الاقل..

" على الاقل"

" فى هذه اللحظة"

جمل تعيد إلى الالم مرة أخرى.

سلامة أزاح غارب من جوار عزة ليجلس مكانه.
أخذها فى حضنه فسلمت رأسها إلى عناقه واغمضت عينيها... كأنها لا تريد أن تراه ؟ أن ترانا؟...

يبدو أن الحب مرتبط فعلا بالاحتياج والغواية. باليأس وبالحنين. لكن ليست هناك علاقة عكسية لها به، فهى لا ترتبط به بالضرورة ويمكنها أن تنمو بعيدا عنه. يبدو لى، أن الألم هو الشىء الوحيد الذى يصير واقعا ملموسا عند التفكير فى الحب.

ثم إنه ليس أمامى دليل على أنى أحبها. فقط بعض تلميحات غارب، الذى لم يستند فيه إلى أى سبب مقنع بالنسبة لى.

ساد الصمت المكان. ثم عادت رجرجات القطار تأخذ ارواحنا بعيدا.

فردوس: " يا ترى يا ماما عاملة ايه من غيرى ؟"

غارب: " أكيد محتاجالك. زى ماما ما هى محتاجالى.. وزى مانا محتاجلك دلوقت.. أوى". ايتسمت لغارب ودخلت فى حضنه.

نظرت إلى سلوى: " ما فاضلش غيرنا بقى.. إليه رأيك"

ضحكت وقلت لها: " ماشى يا ست لولو."

سلوى: " لولو ! ياه .. دانت اتقدمت أوى !"

لم لا ؟ ربما لا يكمن الحب فينا كغريزة تنتظر أن يجد المرء نصفه الآخر حتى يتعرف عليها.. ربما كان الحب صعب إلى هذا الحد. وان علىّ اكتسابه بطريقة ما.. ربما تستطيع سلوى بخبرتها أن تعلمنى. لماذا لم انتبه إليها ابدا رغم أن القدر دائما ما يضعها فى طريقى؟ فى الحب إذا شىء قدرى.

فى حضنى النحيل قالت سلوى:

- تعرف ؟ انا نفسى أسافر فى كل مكان فى العالم".

- ما عاناش فلوس لده كله.

- "أسافر لوحدى"

- " إنت بتحبى الوحدة"؟

- "لأ".

- " تبقى أنانية".

- رفعت رأسها إلى:

- "ده كلام واحد يقوله يا ربى لواحدة فى حضنه!"

بالرغم من تكرار مشهد الأحضان فى اللحظة نفسها – عزة وسلامة ، فردوس وغارب، سلوى وأنا – إلا اننى كنت أرى أن هناك شيئا لايتكرر. وأن ما يحتضنه كل اثنين بينهما يختلف عما يحتضنه الآخرون..

في الحب إذا أيضا شيء نسبى.

الفصل الثالث

حديقة الرب

(١)

إظلام تام. ضوء خفيف يكشف عن سماء زرقاء تحت سحب تجرى. يزداد لون السماء اقترابا إلى اللبنى كلما تقدم الصوت فى الكلام. الصوت منخفض يبدأ هادئاً ثم يتلون ويتذبذب متصاعدا إلى اللهاث بنبرات بارقة من وقت لآخر.

(صوت غارب)

- اغمضوا عيونكم، وليمسك كل منكم بيد الآخر، ويحلم. ازيحو عنكم ملامح وجوهكم واعمارهكم.صور أفراد علائلاتكم، الأماكن التى اعتدتوا ارتيادها ، واعلموا جيدا أن الذاكرة لن تظل إلى الأبد حبيسة الماضى المحدود لكل واحد منكم.

(صمت. نهر جار من منظور طائر بين غابات شدية الخضرة والتشابك بحيث لا ترى أرضها من أعلى).

- تمددوا كالماء. وتسربوا فى العشب. تلاشوا كالبخار. وليتكثف كل منكم على هوى سحابته ليسقط مرة أخرى ، مطرا ، حيث يشاء.

(صور أنبياء تتلاحق فى حالة رعى الأغنام، لا يتعدى زمن صورة منها العشر ثوان. من جهة أخرى يبدو تلاحق الصور كأنه عملية فرز كوتشينة. يطيرها الهواء فتبقى السماء والصوت).

- انتم محظوظون يا أبنائى. ستعيشون الحياة مرتين.

مرة بالروح وأخرى بالجسد.

(يظهر نفق طويل تعبره اشباح سابحة أو طائرة. النفق ضيق سقفه قصير تضطر المار للانحناء. بنى. تقطر منه بعض قطرات السمغ السائلة. تتلاحق صور الشباب والبنات ووجوهم فى حالة تحول تنفى عن ملامحها العمر والنوع. تطول الشعور وتبرز الأثمال من الجسم كأنها قشور جلده القديم وتكسوه عوضا عن الملابس. تبدو الوجوه دائخة. وتظهر فى الصورة

من الجهة اليسرى يدان تتحركان حركات الحواة، المفروض انهما يدا غارب).

- اغمضوا عيونكم، ستمر ارواحكم، فى لحظة خارج الزمن البشرى، بما سيحدث لعمر بأكمله. للأرواح زمنها أيضاً. عندما يخمد الجسد ويستسلم للذة الكسل، تنشط الروح. ليست احلام اليقظة أو المنام احلاما، أنها ما تقيس به الروح حياتها. ولأنها تحسب عمرها باللحظات لا بالسنين ، يجرى كل شىء سريعا، ومكثفا كجريان شريط فيديو. قد تنسون احداثا مما ستمرون به، لكن لا تفزعوا، ستذكرونها فى أوقاتها لو ركزتم بصركم الداخلى عليها قليلا. وقد تلهون عن تذكرها ويحل التشتت محل التركيز فتهلكوا.

(فى بؤرة الصورة يد معلنة عن سبابتها فى حالة وعيد وانذار، يد عملاقة وتحتها فى الخلفية تجلس الأجساد الاخرى وتحركها الريح كيفما تشاء).

- لن تستطيعوا شيئا لو لم تستطيعوا السيطرة الآن على مسار ارواحكم.

(يدا غارب ووجهه بملامح المنتصرين)

- اطلقوها الآن

(غارب كاملا. من منظور نملة. تظهر واضحة ومقرفة تشققات قدميه).

- ولينظر كل واحد منكم إلى قدره الذى قضى أمره، والذى سوف يحيكه له، رويدا رويدا ، لحم جسمه وحركته.

(تظهر صورة كل من الشباب بالتوالى كأنها تنظر للكاميرا منتظرة أن تصور الفيش والتشبيه).

- لا تندهشوا لو قال احدكم لنفسه إذا دخل مكان لأول مرة:

" يخيل إلى اننى رأيت هذا المكان مسبقا".

أو " أعتقد اننى قضيت كهولتى هنا"

أو " ليس ذكاء منى أن اتصرف بهذه الخبرة فى محنة كهذه، أنه ما تمليه علىّ ذاكرة ما، كأنى مررت بهذا الموقف من قبل، وتصرفت نفس التصرف وقد أملاه على رجل عجوز شارف على الموت ".

(وجه غارب ويده بحركة وملامح المستخف الذى يرثى ويتعاطف فى نفس الوقت بحال هؤلاء الخليقة).

- كونوا إخوة يا أبنائى...

فليس هناك زمن تعيشون ملابساته، ولا مرحلة عمرية بعينها تمرون بأزماتها، ولا مكان أيضاً إلا ما تطرأ صورته فجأة على اذهانكم، فاصعدوا اصعدوا. ربما نعود حوات وآدمين نرتكن إلى شجرة الجنة.

(وجه غارب يغرق فى التأسى كأنه يبدأ رغما عنه فى تمثل شخصية حكيمة).

- احلموا ، دون جزع من أن تحلموا.

وتذكروا أن ما سيحدث ، قد حدث.

قد حدث.

(٢)

لم يكن الأمر سهلاً. لم نجد سوى طريق طويل وضيق كسرداب. اضطررنا لأن نقطعه كاملا بلا هدف، لم يكن أمامنا غيره. وكان غارب ينظر الينا الواحد تلو الأخرى نظرة متفحصة احيانا، غائرة، مستريبة، أو فقط نظرة ابوية مشفقة علينا من طول الطريق وفراغ معدة الصغار اليتامى (كان يرانا يتامى كحوات وآدمين!) يتقدمنا بعصا طويلة مخروطية يتكئ عليها كالانبياء.

كنت أشعر أن رغبتى فى الضحك تزداد كلما اقتربنا من نهاية الطريق، ولاكون موضوعيا، رغبتى فى السخرية، والتشفى لحظة أن وصلنا إلى "الجنة" التى كان يحدثنا عنها:

" يا أبنائى فكروا فى كل ما تشتهون .. ستجدونه قد حضر".

يا سلام!

كل شىء سينقلب أمره فى غمضة عين؟ !

هذه الجنة التى دخلناها كان يرثى لها. مسكينة بائسة. لها أشجار جميلة! نحيلة وعقيمة، تقبض اشعة الشمس عليها من جذورها ، لا زرع فيها ولا ماء. تراب. من اين سنأكل وكيف سنعيش؟ لا أدرى. هل صدق فعلا هذا المجذوب أن حركة امعائنا توقفت؟ أو أن تكويننا البيولوجى والفسيولوجى قد تغير حسب مزاج حضرته وبفعل أحلامنا المزعومة؟ هل صدق أن هذه الغابة التى تشبه داعرة عجوز هى الجنة؟ ولأننا فعلا آدميين وحوات ! هل أخبره بأسمائنا ربما يفيق من لعبته الجديدة ؟ هل أخبره بعمر كل منا، عنوان بيته، عمره وفصله الدراسى ؟ و...

رفع يده إلىّ وأشاح بها بوقار. اغمض عينيه للحظة ثم فتحهما علىّ:

- " قل لى يا بنى هل امكنك أن تحلم؟

- " إيه العبط ده ما تفوق بقى ! احنا فى ورطة ، ما فيش أكل ولا شرب ، والبوليس كمان زمانه فاكر أن احنا خاطفين البنات ، و ..."

اخذ نفسا عميقا ثم اخرجه ببطء والتفت إلى:

- " يا فتى لا تكثر من الكلام، واعرف كيف تحدث معلمك العجوز. يشفع لك صغر سنك. هذه حماسة الشباب أراها فى عينيك. وهذا بريق التعطش إلى المعرفة. فلا تفسح للغرور مكانا فى قلبك. واعلم انك لا تعرف كل شىء، بل ولا تعرف أى شىء ما زلت لا تعرف شيئا عن طبيعتك وطبيعة الحياة من حولك. لا تكن مندفعا متعجرفا كالجاهلين. اغضض طرفك لمعلمك وتواضع يا بنى لترفع روحك وتواخى الحجب المقدسة".

- " جرى ايه يا غارب ! "

- كفى ! ... سأصلى من أجلك ".

لا أعرف هل كان له كل هذا التأثير على من حوله حتى أنهم التفوا حوله وأخذ يحدثهم ويندمجون معه فى الحديث الهامس الحكيم حتى سلامة ، وسلوى، كأنهما روحين حائرتين قد وجدا ضلتاهما فى هذا المعلم . انا أيضاً شعرت بالخذى بسببه، بعد أن مرت عدة أيام علينا لم يخبرنى احد أنه سيموت جوعا أما انا فقد كدت أفقد صوابى من آلام معدتى وتضرعها لى أن احشوها بأى شىء. كنت أقطع فروع الأشجار بهيستيريا وأقشر لحاءها وآكل لبها الذى كان يسبب لى بعد ذلك تعب شديد فى القولون وعمليات الهضم والإخراج بصفة عامة. أما هم فكانوا ينظرون إلىّ فى شفقة بينما يوسدون لمعلمهم تل صغير من التراب تحت أكثر الأشجار اظلالا. لكى يجلس عليها ويثير اذنى بكلماته.

" يا أبنائى .....،

يا أبنائى..... ،

يا أبنائى.....،

وعندما يغضبه رأى أو سؤال لواحد منهم ينزع عنه أبوته:

" يا فتى ..... ،

يا فتى ..... ، "

وينهى زجره الوقور الهادئ له بجملة:

" تواضع يا بنى ..... تواضع "

كأنهم لن ينالوا شرف تبنيه لهم إلا إذا تملكهم شعور بالضعة والخضوع.. لكن الشجاعة لم تكن تواتينى كى أحدثه. كنت بعيدا منفصلا. ومنبوذا.

غير أنى كنت احيانا استرق السمع اليهم. هالتنى البداية: كنت أرى شفاههم تتحرك، ايديهم تتحرك، رؤوسهم تتحرك، كل شىء فى حالة حركة متناغمة مع حركة الأب، أو المعلم كما كانوا يسمونه احيانا،، لكننى يستعصى على سماع أصواتهم. احيانا كانوا يمشون طويلا فى "الجنة"، يتفقدون

اشجارها، وترابها، لا يبدو عليهم التعب، ولا يظهرون بمظهر الباحثين عن الطعام. كنت أتتبع آثارهم. وكلما كانوا يمضون اكثر فى اعماق الجنة، كنت أجد الأثر الذى يتقدمهم يكبر ويتعملق. حتى إذا ما التفت إلى رأيته. لم يكن يشبه غارب إلا الشبه البعيد. كان نحيلا كالزهاد، طويلا لا تصل إليه يد، تتسع الرقعة التى تحتلها قدماه من الأرض، وتغوص فيها كأنها جذور شجرة تحجرت من قسوة المكان. أما هم فلم يكونوا يشبهونه إلا فى نحولته. تدريجيا، لم تعد تظهر على ملامحهم فروق الذكر من الانثى: كان النساء يعرفن بأن شعرهن أطول.

وكانوا يجلسون احيانا فى شكل دائرة تحت شجرة، أو حول تل صغير، يصعده معلمهم، وقد أتى كل منهم بفرع شجرة متفحم من الحرارة ، يمدون الأفرع امامهم حتى تتلامس اطرافها ويغرقون فى صمت يزيدهم نحولة، حتى انى تخيلت انهم سيتحولون إلى أرواح بلا أجساد.

عندما تجسد الخيال فى رأسى هالتنى الفكرة:كيف سأتعرف عليهم لو حدث ذلك؟ ألا يكفيهم انهم صاروا اشباحا تقريبا؟

رأيتهم فى مخيلتى يتبخرون وتصعد بقايا جلودهم وتندمج مع أشعة الشمس الحارقة حتى تنجذب إليها تماما كل قطعة فيهم، فيصعدون. تخيلت هذا التحول التدريجى بشعا: جلود تتقشر وتترك أصحابها الذين يتجهون إلى بهياكل عظيمة محشوة امعاء ومعدات وقلوب تنبض، لها صوت المضخات العملاقة.

عندئذ اوقف المعلم صلاتهم فجأة ولمحنى من بعيد أتطلع اليهم فقربنى إليه وطلب منهم أن يتركونا وحدنا.

- " عاوز منى إيه ؟ "
- " ماذا تريد انت من نفسك يا بنى ؟"
- " عاوز آكل ".

- "تزود معنا"

- " هو فيه حاجة تتآكل أصلا! "

- " ألا تحلم بشىء آخر ؟ اسألهم بماذا كانوا يحلمون "

- " أنا ما باحملش ".

يتفرسنى كأنما تأكد من إجابة لسؤال ما. حاولت أن أكسر الصمت الذى حل فجأة بيننا، فهو صديقى وزميل دراستى على أى حال:

- " أنا مش مقتنع بأوهامكو دى "

- " كنا اليوم نتعلم شيئا اصطلحنا له كلمة " حديث الصمت " وفى هذا الدرس نستفيد من دروس التركيز السابقة فى ....."

- وأنا مالى، بأقول لك عايز آكل "

- " أى أنك مقتنع اننى أستطيع أن أوفر لك طعاما ".

- " وفره لنفسك يا خويا الأول ".

نظر إلى نظرة محبطة وان كان يتخللها بعض العتاب المشوب بقليل من الأمل. وعاد إلى موضوع درسه من جانب آخر.

- " ألم تكن تحلم بأننا مسوخا تتبخر ؟"

- " باسلى نفسى فى الخرابة دى ! ايوه تخيلت ده، بس ما حلمتش .. انت عرفت منين؟ انتو بتدرسو ايه بالضبط.

- "احضر دروسنا"

- "لأ"

- "إذا، لن تتعلم شيئا"

تركته وذهبت أتابع نزهة تلاميذه.

عندما طرأت ببالي الفكرة قلت لنفسى: لم لا؟ وكانت قد طرات بعد مجهود شاق في التذكر، أم ان بزوغ الفكرة هو الذي مهد للتذكر؟

بهذا الخط البياني الزمني مرت رحلة الفكرة والتذكر:

أنا جعان

عايز آكل

لازم أتحمل شوية

مش قادر اتحمل أكتر من كدة

إشمعنى هم مش حاسين بالجوع؟

أنا باحسدهم

يا ترى بيعلمهم ايه العجوز الخرفان ده علشان ما يحسوش بالجوع؟

أو.. ما بيعلمهمش ايه يخليهم ما يحسوش بالجوع..

لازم أتصنت عليهم

بس أنا مش سامع حاجة!

لو ماجبليش غارب أكل دلوقت هاحرضهم عليه يقتلوه!

إنشاالله آكل جثته!

لكن مين هو دة علشان أطلب منه آكل؟

هو فاكر نفسه مين؟ ربنا؟

...ربنا!...

عرفت ساعتها انه لا مفر من ان اكون شيطانا، بل ابليس نفسه. وأنه من واجبى وإن لم يثمر ذلك عن شيء، ان احرضهم ضده. لان احلامنا عادت بنا الى بداية الخلق وعلى ان أتذكرها كاملة حتى أتحمل عبئى فيها. انت حقا يا غارب لا مثيل لك، لان بمجرد اقتناعي بأننا في بداية الخلق الان اضطررتنى لان اسلم فعلا باننا في الجنة.

هكذا بذكاء لم أعهده فيك، أدخلتني طرفا ممثلا في اللعبة. وبدأت أتساءل حول الشخصية:

هل كان الشيطان مثلى يعرف مقدار المسئولية التي تقع على عاتقه؟

رغم انهم جميعا متورطين في اللعبة الا ان احدا منهم لم يعى ذلك. لا أحد غيري. هل كان الشيطان مثلى ايضا ساعتها وحده المدرك لهذا الامر؟

بدأت تنفيذ الخطة ممثلا ما ظننت ان قد فعله ابليس.

(٣)

- أشعر احيانا اننى شخص آخر. انني مضطرة لان اكون شخصا آخر. وأن اتتبع خطواته التي مشاها. بدأ يترسخ في هذا الشعور في إحدى المرات التي كنا فيها نربى احسادنا بالمشي. عند منحدر، توقف بنا معلمنا ونظر الى السماء ثم انحنى الى التراب وفرك حفنة منه بين اصابعة الكريمة. كان يبدو انه ليس ترابا عاديا. كان عبارة عن بقايا حطب احرقته النار. قال معلمتا بابتسامة راضية: "بشرا كانوا هناك قبلنا." فعرفت اننى تكرار لصورة مضت. منذ ساعتها احاول التذكر، رغم ان معلمي منعنى من ذلك. قال اننا سنتذكر كل شيء في اوانه، عندما يحين اوان التذكر.

- تحبى اقول لك اسمك كان ايه؟

- كلا، ليست هذه هي الذاكرة التي ابحث عنها. قال معلمنا ان الاسم مرتبط بالجسد الذي تسمى به، وان الجسد

مرتبط بالحياة التي يعيشها لحظة تسميته بالاسم. وأنا لا افكر في تكرار حياة عشتها بجسدي من قلبل.

الان نحن ما زلنا نتعلم النسيان حتى نستطيع الدخول الى حياتنا الجديدة. يجب ان ندخل بذاكرة ناصعة البياض. ورغم اني استطعت ان انسى اسمى القديم وصورتي القديمة، إلا انني ما زلت احاول، ولو خفية، ان اصل الى الذاكرة التي ابحث عنها، التي انا تكرار لها. معلمنا يعد أجسادنا للحياة القادمة للروح، وأنا أحاول ان اتذكر ما فات. اعرف جيدا ان الروح قد عاشت كل شيء قبل ان تتحدد بالجسد، لهذا اريد ان ارى الماضي، لان كل شيء حدث في الماضي. ولا ارى في ذلك اى تعارض مع عقيدتنا، لكن المعلم كان يقول أنه ليس على الانسان الموجود في حاضره ان يحاول الالمام بكليات الامور، بما انه موجود في جسده، ضعفه المادي، فالجسد لا يستطيع تحمل كليات الروح، ولذلك علينا ان نستعد لحياة تلو أخرى، ولا ندخل في حالة الاستعداد لحياة إلا عندما نفرغ من اخرى، والا سينهار الجسد من جراء تذكر كل حيواته السابقة واللاحقة دفعة واحدة! وتضطر الروح الى تركه الى جسد آخر

تكمل من خلاله دورة حياتها، او تبقى معلقة في حيز الفكرة، تلعب بها ريح التأويلات، فتضيع.

في البداية كنت أخاف ان يغضب منى معلمي. لكنه كان ينظر الى، ورغم ارتعادي، لم يكن يحدثنى في هذا الموضوع. كان ارتعادي ظاهر حتى لاخوتي في العلم لكن يبدو انه لم يكن واضحا لمعلمي. بدأت افقد الثقة فيه، لولا تذكري ان المعلم يهتم فقط بما هو كامن في الروح، ولا تشغله بالتالي ظواهر الجسد.

- وفين بقى التكرار في الكلام دة؟

- في احد الدروس التي يلقيها علينا تمهيدا للدخول في التأمل حدثنا معلمنا عن التكرار. لم يكن ينظر الى بعينيه لكن بقلبه، وكأنه يخصنى بشيء من دون الباقين. قال ان للبشرية أخطاء من نوع أخطاء البشر أنفسهم، ولها أفراح وأحزان وأسئلة ايضا لكن بصورة اكثر كلية. لهذا فان عمر البشرية أطول بكثير من عمر فرد واحد منها، بل ومن عمر البشر جميعا، لان البشرية موجودة حتى قبل ان

يوجد البشر، موجودة في حيز الامكان. وجود لم يكن قد وصل بعد الى مرحلة التطبيق، فهل يعنى هذا انتفاء هذا الوجود الممكن؟

- وتصدقيه؟

نظرت الىّ عزة نظرة متسامحة من عارف لجاهل مسكين. ثم غاصت بنظرتها في عيني حتى تأكدت من كوني احببتها فعلا، دون اي دليل منطقى على ذلك، ولا أدري كيف أوصلتنى نظرتها الى هذا اليقين.

- بحبك يا عزة. قلت، فانهارت من البكاء. ثم صمتت قليلا موجهة نظرتها الى عمق الشجر.

- أنت دخلت الى حياتي بين عمرين، وقررت لى طبيعة تكرارها تكرارها. الان أدرك اسمى الذي كان، وسبقى هو نفسه اسمى الذي سيأتي. انت سميتنى فأنزلتني من جديد الى حياة الجسد.

جلست الى جوارها وسط الشجر أحاول أن أفهم كلامها لكننى فشلت. ربما طغى على الزهو لكوني "أسميتها". بعد لحظات قالت لي بنبرة مستسلمة لامر واقع ما، أنها جائعة وتريد ان تشاركني البحث عن طعام. عانقتها وانطلقنا. في الطريق أخبرتني أنها لم تعد بحاجة الى الاستماع الى درس المعلم. ولرغبة منى في ان اعرف إن كانت في حياتها القادمة ستحبنى مثلما أحبها، سألتها:

- وسلامة؟ ما يهمكيش تشوفيه؟

فانتفضت، ورددت اسمه كأنها أدركت معلومة جديدة. وعاودني انا دون سبب مفهوم، شعوري بالوحدة، واللامبالاة ايضا.

كدت انسى هذه اللحظة، لما تبعها من لحظات مسكرة. كانت عزة كأنما اكتشفت المكان لاول مرة. وكأنها كانت نائمة وأفاقت بغته متعجبة لكل ما تراه. لا تعرف الكلام. بالاشارة تسأل عن اسم كل شي: السماء الملابس الورق الاخضر.. ثم تنامى المرح، فأخذت تقفز وتدور حول نفسها وحول كل شيء

تريد أن تعرف اسمه. تحك يدها بالشجرة، أقول: شجرة، تردد: شجرة. وتضحك. تقبض بحفنة من التراب في يدها:

- أرض

- أرض! تردد كأنها تتذكر المفردات.

كان يصلنى صوت أقدامها وهي تدوس الاوراق الناشفة. تطير من شجرة لاخرى مكررة دورانها حولها. وكانت هناك موسيقى. وكنت سيد المكان.

أخذت أتبعها من مكان لآخر شاعرا باكتسابي ارض جديدة كلما وطأت أقدامي مكانا لا أعرفه، وفجأة صرخت واختفت. لاحقتها فاكتشفت نهرا صغيرا انكببت عليه لأروى عطشى الذي دام فترة طويلة، بينما كانت تشير اليه لكى اخبرها باسمه. عندما يئست من اجابتى، تطلعت الي وفعلت مثلما أفعل. بعد ان شربت قالت: دي مية عذبة! تعالى نقول للباقيين! وجرت اليهم تقاطع الدرس بصخب وتهليل منادية على سلامة وحده:

- تعالى اشرب مش عطشان!

أخذت تكرر الجملة على سمعه حته مللتها، والتفت اليها صاحبها، ثم تاه في نظرة معلمة وكأنه لا يسمع لعزة صوتا. لم تسألنى عزة بعد ذلك عن أسماء شيء مما حولنا. وصارت تتحسن بسرعة في تذكر الكلام. عندما أهملها سلامة، استمرت في السير. كانت تشرد أحيانا، او تبتسم بلا سبب، او تسأل فجأة عن اسم اي عضو من أعضاء جسمينا نحن الاثنين، دون ادراك واضح أنهما جسمان منفصلان، ولا تفرقة بين سؤال عن ذراع او رقبة او عضو تناسلي، كل الاسئلة نابعة من رغبة في التذكر لا يشوبها حكم مبسبق يمكن ان يظهر في المظهر العادي عن السؤال عن هذا، ثم الخجل عند السؤال عن ذاك. وعدم التمييز هذا أزعجني. لكننى آثرت ألا أجيب إلا على قدر السؤال دون محاولة لايقاظ معلومة لم تطلبها هي بعد. شربنا من الماء حتى ارتوينا، ثم نمنا فوق الشجرة المحازية للنهر، لتعاود السؤال: - نجوم.

- نجوم ! صح ! نو جووج.

لم تسألني عن القمر. غاصت بعيونها فيه حتى نامت. ولذت بحضنها من الليالي الماضية. الآن لست وحيدا. قلت لنفسي. ثم سرعان ما تذكرت العهد: المهم الخطة تنجح للنهاية. وهكذا اصطنعت النوم عندما ناداها سلامة في عمق الليل بصوت خفيض ليقول لها:

- غصب عنى. آسف. حاسس بحاجة، وانت بعيد مش مركز.

- وحشتك؟

- صح! وحش تي نى !

وأنا أجلس القرفصاء، وأفرح؟! والمفترض أن أسعد حتى السكر لأنها أشربته من الماء، ولأنهما بدأ حياتهما كبشر من لحم ودم بأن بالا على نفسيهما ثم ضحكا، ثم نزلا ليغتسلا في النهر، حيث بقيا مدة طويلة جدا! ويضحكان. عندئذ عرفت أنهما سوف يعيدان من جديد كل اشكال العلاقات التي مرت بين الرجل والمرأة على أرض البشر، وأن التصفيات أثمرت عن

نتائجها عندما وقفا يطلبان من غارب إما أن يطعمهما أو يزوجهما. حدث ذلك بعد أن اكتشفا معا، بينما صرت أن مراقبا عن بعد، جسراً يعبر الى الضفة الاخرى من الحديقة. كانت تظهر ثمار وأشجار على مرمى البصر. بعد تداول هامس بينهما، أقنعته عزة أن يأتيا الي، ثم يشيران الى المكان الواقع في الجهة الاخرى من الجسر فقلت:

- الغابة

- إلغابا؟ نظرا الى بعضهما في تساؤل. إل غا با..

- فيها طعام، أكل وشرب. مافيهاش جوع ولا عطش زي هنا. وزيادة على كذة فيها شجر زي هنا، وفيه جسر ينقلنا كلنا سوا،

أخذا يفكران في صمت، أكملت:

- ولو شعرتوا بالذنب ابقوا ارجعوا بالجسر تانى لغاية هنا!

تعانقا وذهبا لإبلاغ المعلم بقرارهما. لكنه رفض. وسألهم عن مكاني. لكنهما أبيا ان يخبراه. وعندما لم يفعلا، أمر رسوله المؤمن سلوى أن يذهب لنصحى عند الشجرة المعلونة قرب نهر الحياة الجاري. وأنها ستجدني مرشوقا في قلب الشجرة. عندئذ ثار الزوجان الشبان لمعرفة المعلم بأمر النهر دون ان يخبر عنه الجميع، واتهموه بالشرب منه وتحريمه عليهم. لانه يريد ان يحيا للأبد ويميتهم هم من العطش. فهددهم المعلم ببطشه، وبكونه يعلم ما لا يعلمون. وأمر شرطي الافكار فردوس أن يتحفظ عليهما كفكرتين شردتا ويجب التركيز معهما حتى حين.

عندئذ فكرت بروح الدعابة، انه قد يكون أرسل الى سلوى حتى يستأثر بفردوس، حبيبته السابقة التي يساويها الآن بالباقين، وكأن ذاكرته القديمة هو أيضا بدأت تنضح عليه بينما يقاومها.

وجاء دور سلوى. ربما لأن ساعتها كان غارب – القوة المحركة العليا – قد اهتزت في عيون مريديها. وجدت

سلوى تقترب من الشجرة بأثمالها الرقيقة المهلهلة كأنها ملكة على الفقراء، في مشية مستهترة بطيئة، ونظرة باردة، تتقدم نحوى. كان صدرها العاري إلا من شرائط من القماش بلون الارض، وابتسامتها المحايدة مستسلمة تماما. طرحتها على الطين، ودثثت رأسي بين فخذيها حتى انتفضت سلوى وازداد ارتعاشها حمى، عندما شبعت، صرخت صرخة مشروخة، وماتت. ولذهولي لم اعرف ماذا افعل الآن. فررت عدوا حتى أخل اللهاث بانتظام تنفسى، وأرهقت عضلاتي. نعم، اكتشفت لي عضلات ساعتها، أنا، الهزيل قبيح الوجه والهيئة. تواريت فزعا في بطن شجرة جوفاء، ونمت. فكنت هكذا مرشوقا بالشجرة مثلما تنبأ غارب.

(٤)

"هل التفاصيل مهمة؟"

جملة طرأت على رأسي بينما أدون ما حدث. أحيانا تطرق أختى الصغيرة باب حجرتي. أصبحت أميز طرقاتها الضعيفة الملحة، فأفتح لها دونا عن بقية أهل البيت. حتى أصبحوا يبعثون الي بالطعام من خلالها، وأيضا بجمل العتاب والحنان والتهديد.. أن آكل معهم، ان أعاود الذهاب الى المدرسة، ان اجيب على الباب عندما يكونون جميعا بالخارج.. الخ..، كل شيء يتحد مع الاخر في حلقة واحدة: أن أخرج من الحجرة.

لا أدرى منذ متى اكتشفوا ان الحجرة صارت تنافسهم اقتناؤهم لي. ولماذا كل هذه الحيل الساذجة لاخراجي منها. لماذا لا يرغبون هم في ان يدخلوها. ألها سطوة لدرجة تجعلهم تحت رحمتها لو كانت المعركة بينهم وبينها على أرضها هي؟

المعركة ليست ربما بينهم وبين الحجرة، فلا أظن أنهم بالنبوغ الكافي ليفكوا رموز لغة المكان. ربما يكون صراعا بين مكانين. صراع بين ارضين ينفصلان ويتصلان في ذات الوقت بباب ملك لاحدهما: باب الحجرة. يبدوا ان اهلى من السذاجة بحيث استغلهم المكان ليعبر عن خلافاته العائلية! او انني صرت الآن أعزلا لدرجة صار كلام غارب يخرج عن لساني، بما انه كان يتحدث عن عالم الجماد والنبات من حيث استقلاله عن الانسان، روح الجماد، اشياء ليست للتداول.

توقفت عن الكتابة هروبا من مواجهة التفاصيل، أو ربما لأن الصمت طاقة يجب التدرب على احترامها، كما يقول غارب. ربما أيضا لأننى لم أعد أصدق ما أحكيه.. أنا الآن في حجرتي، بين افراد اسرتي، ما الذي لا ينبئني بأن ما حدث كان حلما؟ (قال غارب احلموا) وحتى إن لم يكن حلم، فهل يصدق أحد غيري أنه ليس حلما؟ عندما أفكر في أننى أدون ما حدث، أفكر بشكل لا ارادي فيمن سيقرأ، هل يصدق؟ تتغير الاماكن كلما مر عليها الزمن. ربما عندما أكون انتهيت من كتابة هذا التاريخ يكون المكان الواقعي الذي حدث فيه قد اندثر، وبنى

فوقه واقع آخر، تاريخ آخر. كيف يمكنني ساعتها مثلا ان اقنع أختى الصغيرة، التي أحكى لها ما حدث كأنه وهم، مجرد حواديت صالحة لان تجعلها تنام مبكرا، أو أن تصاب بأرق مثلي، ان اقنعها ان هذه الحواديت قد حدثت، وإن ذهبت بها الى مكان الاحداث، ستكون الغابة قد تحولت الى عمران، واختفت ظاهرة الموالد، .. لن يمكننى ساعتها ان اقحم على ذهنها واقعا لا يخصها. واقع، صار واقعي وحدى، اعتقادي وحدى، وستراه هي، مجرد أساطير.. وتفعل بي ما فعلت أنا بغارب.

لهذا يا أستاذ أنا ، عليك ان تجابه هذا الواقع الان، بتفاصيله التى تهرب منها، لانه لن تكون هناك فرصة اخرى في المستقبل لتدوين الاشياء كما حدثت بالفعل. سينمحى المكان ناثرا وقائعه مع ذرات الهواء، ولن تسعفك الذاكرة بعد فترة، إلا بحكايات ملفقة لسد ثغرات شيخوختها. ثم إنك مؤرخ الان، تذكر ذلك، وليس عليك ان تختار احداثا من دون غيرها، او تحدد بأحكامك، ما هو "جدير" بالكتابة وما هو لا يصل الى

هذه الدرجة. أنت مؤرخ، ولست مريضا نفسيا تقاوم عقدته بالتنويم المغناطيسي.

(٥)

كشيطان، نجحت في ان اجعلهم يشربون من الماء المحرم على اتباع غارب، وان يأكلوا من شدة الجوع أوراق الشجرة المحرمة التي نمنا جميعا بين أغصانها ككتلة عصاه في مواجهته. ظل وحيدا، يستمر في تمارين التأمل والاختلاء، ويواصل السير حتى تهالك قدماه، فيغمض عينيه ويبدا في التركيز. كان الجميع يلح على عبور الجسر الى الجهة الاخرى، حيث يتراءى على مرمى البصر شجر مثمر، وارض طينية سمراء. ما إن يظهر غارب، حتى يبدأ الجميع في إلقاء الصراخ والسباب عليه، كأنها صلاتم الجديدة، ابتهال من نوع آخر، صلاة للطعام، أكثر حميمية لبشر من دم ولحم منها الى ملائكة. وكأن موعد هذه الصلاة يحدده غارب ما زال، بما أنها لا تبدأ إلا عند حضوره، لكنني أصبحت أنا الذي يأم المصليين. لكن غارب سرعان ما يختفي، لتحل محل الصرخات تأوهات مكتومة لمساجين ما زالوا ينتظرون أمر غارب حتى يأذن لهم

بـالمرور الـى الارض عبـورا بالجسـر. هكـذا احـتفظ صـديقى بألوهيتــه، رغـم ان الجميـع أحبـوني لاخلاصـي ورغبتـي فـي إطعامهم. عندما توصلت الى هذه الفكرة حنقت عليـه، وصحت فـيهم ان مـاذا تنتظـرون، وتقـدمتهم صـارخا الـى الطعـام ! الـى الحيـاة ! بعيـون يخـرج منهـا الشـرر، فبـدأوا يـرددوا هتافـاتى، وحملوني على أكتافهم مثلما يحمل قادة الثوار في الجامعة الى مظـاهرة تسـعى الـى قلـب الحكـم. والغريـب ان المنظـر مـن عـل فـوق اكتـاف الاخـرين يجعل المـرء اكثـر تحمسـا لقضـيته، لأنـه يبدو ساميا مرتفعا فوق هامات البشر كافـة، ولاننـى أعى جيدا انني بشر أيضا، أعرف ان الوهيتي تكمن فـي حنقـى علـى الالـه القديم، واستمرار صوتي صارخا باي كلام بنبرة متقدة حارقـة. وفـي هذا أنـا أتفـوق علـى إبليس، لأنـه لا يشـترك معـي إلا فـي السعي الامتلاك حب الجماهير. ربما كان مثلى يشعر بالملل.

لكن بمـا اننـى لا أملـك طاقتـه كمخلـوق مـن نـار، وجدت نفسـي بعد أن رفعوني فوق رؤوسـهم أشـفق علـى غـارب بـدلا

من أن أشمت فيه. وعندما اعترض الموكب طالبا إلى الحديث، وجدتنى بدلا من أن أصرخ في وجهه وأشجب اعتراضه للموكب، أنزل إلى قامته لنتحدث وجها لوجه. في الحقيقة كنت وصلت إلى أنهم يؤلهونني على بطونهم التي في داخلهم، في العمق، أما هو فله فقط المظاهر، الخرق الرثة، الشعور المشعثة، الوجوه الشاحبة، وهي أشياء تعاف نفس الواحد أن تتأله عليها. أمرتهم بالجلوس إلى ان نتحدث أنا وزميلي. تركناهم ومشينا. وعندما استمر صمته لفترة طويلة بينما نمشى مما آلم قدمي قررت أن أبدأ الحوار ربما لنتسلى قليلا حتى لا يزداد الألم:

- "سيجارة؟"

أشار برأسه رافضا فوضعت العلبة في جيب قميصي بعد أن أخذت سيجارة وأشعلتها، ثم رميت الكبريت في النهر. لم ينتبه أي منها إلى اشتعال النهر بأكمله من أثر إلقاء الكبريت، رأينا النهر، لكن بنظرة معتادة، كأنه كان مشتعلا منذ الأزل، وكأننا اعتدنا ان نرى في الانهار نارا وليس ماء، أو

ربما، وهذا هو الارجح، أننا كنا نعلم –بدون ان ندرك ذلك- أن هذا النهر قابل للاشتعال. نظرة غارب للنهر كانت تقول أنه رأى نفس المشهد من قبل، رأته روحه قبل أن يأتي وبدى عليه الأسى كأنه يستشرف الما قادما، كانت شفرة حريق النهر مفتاحا له. أما أنا فقد نظرت إلى النهر باسما، وكدت أضحك من الألم، يبدو أننى صدقت أنا أيضا، ولفترة، أننى شيطان فعلا، وعندما نظرت إلى النار ونظرت إلى نفسي، لم ار فيّ أي شيء شبيه بها، فتذكرت أننى إنسان، ضحكت في نفسي ساخرا منها، منتظرا لمصيري في النار كما قالت الكتب السماوية. وشعرت أن علي أن افعل شيئا لهؤلاء المساكين قبل ان يلقين غارب في النار، فقررت أن أحاول إقناعه ان من حقهم ان ينتقلوا إلى الضفة الاخرى، فكرت أن اقنعه بطريقته، فبما أنه يستلهم الكتب السماوية فلما لا أخبره أنه لولا نزول آدم وحواء إلى الارض لما كنا ولدنا وعشنا وصرنا أصدقاء يا غارب، وعليك ان تترك التاريخ البشري ليأخذ مجراه، يجب ان يرحلوا وأن يعمروا الارض.

- لستم آدم وحواء. (اجابني دون أن أتكلم. ثم نظر إلى بعطف وأكمل) ثم إنك لست شيطاننا يا أستاذ. أنت نسيت صداقتنا؟ تفتكر هاحب أسيبك تعيش انت وسلامة في مكان واحد؟ وعزة هاتعمل ايه بنكم؟ مش كفاية اللي عملته في سلوى؟

تغيرت الخلفية وراءنا، كنا في الشارع خارجين من المدرسة. استمرت أقدامنا تمشى "محلك سر" والاماكن تأتي من أمامنا ثم تتراجع إلى ان تصبح خلفية لنا، ثم تختفى لتحل أماكن أخرى محلها وعندما وصلنا إلى المولد أجبته:

- سلوى ماتت من الجوع، وهم محتاجين ياكلوا، أوعدك أنهم أول ما يعدو من هنا هارمي نفسي في النهر.

- سلوى ماتت مـ الشبع. اللي كان نفسها فيه، حصل، مابقتش عايزة حاجة من الدنيا، علشان كدة لازم تفضلوا جعانين.

- يعني انت عارف إننا في الدنيا؟! هايل! طيب ما هي الدنيا دى زي اللى جنبها!

نظر الي وابتسم وجلس إلى شجرة كانت في نفس الوقت وتد من اوتاد خيمتنا أمام البحر، وقال:

-"لا"

ازداد غضبي وثورتي وبعد ان كنت استميله واستحلفه صرت أزعق فيه وأصيح ملوحا بيدي وشاتما:

-"أنت فاكر نفس ايه عشان تتحكم في الناس! مش من حقك تقول مين مات ليه ونعمل ايه عشان مانموتش! ما كلنا هانموت يا اخى، يحصل ايه لو أكلنا على الاقل قبل ما نموت؟ مانت كمان هاتموت! أنا غلطان إنى واخدك على قد عقلك. لازم تعرف ان مش من حقك تتحكم في مصير حد فينا، يا أستاذ".

كانت الخلفيات تتلاحق في فوضى وصورتنا تتحرك بينها كأنها في دوامة. وقف غارب فوجدت أننا نقف على

صخرة تتدفق منها نار النهر، نظر إلي غارب بتأنيب كأنني أنا الذي حكمت عليه بأن ينزل في الماء.

نظرت خلفى فوجدت أصدقائي مستعدين للرحيل، والجسر أمامنا ضيق، كنا نتلاصق على هيئة طابور لكي نعبره، والنار تلسع أقدامنا، كنت أنظر إلى النهر وأفكر أنها قد تكون إحدى خدع غارب، وأنه سوف يعود مثلما كان يفعل كل مرة يغيب فيها، لكننى ما إن وضعت قدمي على الضفة الاخرى، بعد أن اطمأننت على سلامة الاصدقاء، تذكرت اننى كنت فعلا شيطان الارض التي تركناها، وأن غارب ربما يكون مثلهم قد فقد ذاكرته الماضية، وأننى عندما قلت له أنه سيموت حكمت عليه بالموت، فلم يعد، من وجهة نظره، إلهاً، وعندما قلت له "يا أستاذ" اعتقد أنه أنا فرمى نفسه في النار بصفته شيطان الجنة.

وعندما وضعت القدم الأخرى في الارض، قلت لنفسي ربما أكون أنا الذي وقعت في النهر، أقصد، قد حدث إحلال وإبدال بين روحينا كما يسميها غارب، أو أدوارنا في الفيلم

كما عهدت من قبل أن أسميها أنا، ربما أنا الآن غارب، بما أن "الاستاذ" هو الذي مات. مات؟ يعنى غارب مش جاي! يعنى لازم أحل محله الآن، بما ان اسمى قد مات معه، وبقى اسمه هو معي. أنا الآن المسئول إذا عن هؤلاء الإخوة. وإذا كان غارب صبرهم على الأكل والشرب عن طريق استعارة القصص المكتوبة في الكتب المقدسة لأنه اعتقد أننا في الجنة، سأستعين أنا بما عرفته في كتب التاريخ بما أننا على الارض الآن، وبما أني مؤرخ. يا إلهي! هذا مرعب حقاً، ولأ أظنني أهلا له!

(٦)

منذ أن وصلنا، كنت في كل يوم مساءً أصغر وأعود تلميذا في المدرسة أذاكر كتب التاريخ، كان جدي القديم يأكل الثمار ثم...

.....

.....

ثم صنعنا من أخشاب الشجر بيوتا وآلات حادة للصيد، ثم صنعنا الآلات الحادة من الحجر، وبعد فترة اكتشفنا ان البذور التي ألقيناها في الأرض بدون قصد بعد أكل الثمار قد بدأت تنبت زرعا.. الخ.

وعندما يأتي الصباح أعود إلى صورتي المألوفة وأخطط لما سوف نكتشفه في اليوم التالي، حتى اكتشف سلامة

حيلتي ذات يوم – وكان هذا هو أول اكتشاف من إنسان للإنسان الآخر.

صرخ في وجهي مثلما صرخت في وجه غارب، فابتسمت نفس الابتسامة واعتبرت ذلك علامة على الإذن لي باعتزل اللعبة وأن استريح أخيرا وأترك لسلامة ان يديرها هو.

بدأ عصر جديد إذا، لكن جذوره كانت تمتد من الأزل، احتال الإنسان على الطبيعة الحرة وصنع منها آلات جامدة، احتال على الحيوان وأكله معتمدا على البقاء للأذكى، ثم جاء الوقت الذي يشعر فيه الإنسان بالامان، وقت الزراعة، وفيه سيتمرد طبعا على من فكر ودبر له، وسيفكر ويدبر حياته بنفسه، متمردا في الوقت نفسه على الزراعة المملة التي تستلزم البقاء والصبر زمنا طويلا حتى الحصاد. وبدأ الإنسان يحتال على البشر في شكل شيء يشبه الحروب بيني وبين سلامة في محاولة لاحتلال المكان، الطعام، النساء، انتهت بسجني في قفص من الخشب كقرد مستأنس، أو كأثر متحفي، برغم أنني أخوه الإنسان.

لم أجد أمامي إلا ردى فعل وعلى أن أختار بينهما: رد فعل سريع مؤثر على الحاضر، وآخر باطني يرجا أثره إلى المستقبل. وكان لرد الفعل الاول ثلاثة أشكال للتعبير عنه:

١- أن اروح وأجيء في القفص ثائرا مجعجعا حتى تنفث ثورتي فأخلد إلى النوم بعد أن خارت قواي.

ونتيجة هذا الشكل من التعبير ان يتخذني الباقون قدوة ويعتبروني زعيم ضحى بحياته في سبيل تحريرهم من سلطة سلامة، أو ان يخافوا من أن يعاقبوا بمثل عقابي فيعيشون نفس الظروف القاسية التي جعلتني أعاني إلى حد الصراخ والثورة.

٢- أن أنافق سلامة وأعتذر وأمتثل له أمام الجمع حتى يعفو عني. وفي هذه الحالة سأكون تحت رحمته، إما يعفو أو يزيد سخريته وإهانته لي. وفي الحالتين ستكون النتيجة إما أن يحبط الآخرون من تصرفي ويزيد أمتثالهم لسلامة، مع رجائه إن يزيد من عقوبتي (كخائن لقضيتي قبل أي شيء)، أو ان يتعلموا النفاق على يدي.

٣- أن أفكر في خطة لإخراجي من القفص وأضع فيه سلامة مكاني. وهنا سيتعبرني الباقون طاغية جديدا، ويمتثلون لي بمنطق "مات الملك، عاش الملك"، ثم يقتادون بانقلابي على سلامة وينقلبون بدورهم على، أو يحتفلون بي كمخلص من الطاغية وبطل، أو إله.

من هذه المجموعة فكرت أن أغامر باختيار رقم (٣).

أما رد الفعل الآخر الباطني الذي يؤتي ثماره في المستقبل، لآخرين، وليس لتخليص نفسي، فليس له إلا شكل واحد للتعبير عنه: أن أكتب التاريخ للقادمين بعدنا. وهنا تكمن مسؤولية تكوين لا وعيهم، وفيه أيضا اختيارين:

١- أن أنافق سلامة بتزوير ما يحدث في عهده لصالح سمعته المستقبلية لكي آمن شره، وما سيصل إلى الاجيال الدارسة للتاريخ هو شعوري أثناء الكتابة: الجبن والخذلان، وخوف من أي كبير لدرجة النفاق فيفعلون مثلي.

٢- أن أكون مؤرخا منحازا إلى الشرفاء الثائرون فأكتب عن طغيانه، وأشفى غليلي منه. وهناك سيراني القادمون كبطل يحارب بالكلمة، ويقدرون تصرفي، ويطلقون صراح اسمى على ألسنتهم، حتى يملأ ذبذبات الهواء. ويعرفون أنهم سلالة أول عهد للبشرية عرف السجن، والقهر والسلطة المطلقة فيتحصنون ضده بالنزاهة والجرأة والتزام الصدق.

ومن هذا الشكل للتعبير اخترت رقم (٢)

أجبت هكذا إذا على أسئلة الامتحان بسرعة وبدون أن اذاكر، يدفعنى حنقى على سلامة المتأصل من أيام الدراسة، ورغبتي في الخروج من القفص رافعا الرأس، وليس معتذرا ضعيف الحيلة.

تخطينا إذا مرحلة ما قبل التاريخ، والتي كان فيها الإنسان لا يختلف كثيرا عن الحيوان في مطالبه الطبيعية من أكل وشرب وتناسل، ومررنا بالمرحلة الانتقالية بينها وبين عصر الكتابة، وهي المرجلة التي عرف فيها الإنسان الملكية

(الارض النساء التدجين) والصراع عليها وتسيُّدها، أي عرف الإنسان اللذة في السلطة، واعتبرها أساسية كلذة الاكل والجنس والاخراج. ثم دخلنا في مرحلة الكتابة، بما إنى صرت مؤرخا، وهي المرحلة التي يستخدم فيها الإنسان سلاح عقلة قبل يديه، لكي يستغفل غريمة، بدلا من كونه سالفا يقتله، وأن يكون هناك نواة أحكام ومحاكم وسجون (القفص الخشبي) وعقاب، يكون العقاب معنويا أكثر منه جسديا. نستطيع أن نقول ان الحضارة قد بدأت تتشكل، وان سلامة بخسته ونظرياته السالف عرضها في الفصول السابقة للرواية، كان أقدرنا على تمثيل دور الشخص المتحضر.

لكن العصور السالفة بقيت في لا وعينا تخرج في حالات الغضب بعض أصدائها، وهذا طبعا ليس من صفات سلامة، البارد المتخصص في إنتاج الحيل، لكننى كنت في شخصي من يمثل المرحلة الوسطى بين ما قبل التاريخ والتاريخ، وكان استفزازه المقصود لي بمثابة القشرة الضعيفة

التـي يخـرج منهـا بركـان غضـبي. فأتصـرف كمـا يشـير البنـد الثالث من رد الفعل الاول. ولمـاذا لا أكون متـوترا كـأي مرحلـة انتقاليـة، بمـا أننـي أقدم خبـرة مـن سلامة بـإدارة هذه الارض، وهو الشـاب يثـور علـي ويريـد تغيير نظـامي، وبمـا أننـي أكتـب بادئـا عصر التـاريخ، ثـم أثنـاء غضبى أمـزق مـا أكتبـه، وأزوم محـاولا كسر القفص وممتلئـا برغبتـي فـي قتـل سـلامة ونـهشـه بأنيابي.

أما عن الازياء التي يمكنها أن تمثلنى في هذه المرحلة من الفيلم يمكن ان تمثل "إنسان الغابة" أمـام سـلامة "الإنسـان بشكله المتطور بعد أن خـاض كـل مراحـل نظريـة التطـور عنـد داروين، وصار خبيرا بصورة بديهية بنقاط ضعفها ومميزاتهـا، بما أن ذاكرتـه اللاواعية ما تزال تحمل بقايا ذكريات بنى جنسـه فـي تلـك الحقـب المتتاليـة. مـن هـذا المنطلـق يجـب ان نفهـم مـا حدث مع الساحرة المستديرة. والتي جعلت الجميع يشعر بالـندم والـذنب، والتطلـع بحنـين وحسـرة إلـى حديقـة الأب معتقـدين أن غارب ما زال "يستطيع" ان يعيش فيها برغم الوحدة والجدب والظمـأ، وينتظـرون أن يـأتي ليخلصـهم بعـد أن خـارت قـواهم

وجبنوا خوفا من النار أثناء عبور الجسر للمرة الأولى، مما جعلهم يهابون أن يعاودوا الكرّة إياباً من جديد إلى هناك. صاروا يدعونه لأن يأتي، ويطلبون منه ان يساعدهم - بقدراته الخارقة التي سمحت له أن يستمر في العيش هناك ثابتا على مبدئه بلا أكل أو شرب - في تحمل حياتهم هنا،إلى أن يأتي ويصحبهم إليه من جديد. وبدأوا، ليستدروا عطفه، أن يعودوا إلى الصيام وتمارين المشى والتأمل والجلد والصبر على حرمانات كثيرة. وهم يبكون، ويعانون، لا يعرفون أن غارب قد مات، ولا أستطيع – بسبب الندم أولا، ثم بسبب سعادتي متشفيا فيهم لمعاناتهم بعد قبلوا سلامة بعدي- ان اخبرهم بموته، الذي كنت وحدي الشاهد الوحيد عليه.

كنت الوحيد الذي يحزن على غارب ولا يطلب منه شيئاً، والذي يضحك في كثرة الألم والتناقض الذي يراه يعيشه، بين رغبته في لعن نفسه لأنه رغب يوما في إنقاذ هؤلاء البشر الحمقى، دافعا غارب قربانا لحياتهم، وفاقدا أعز أصدقائه لأجل هؤلاء الذي يحبسونه وينتقمون منه الآن لأنه أخرجهم من هناك وأتى بهم إلى هنا. لقد فقدت كل شيء، ولم

يعد أمامي الآن حقا إلا السخرية من كل شيء، من نفسى ومنهم على حد سواء.

الفصل الرابع

الساحرة المستديرة

(١)

لم أقصد أن أشارك في الأحداث، مثلما لم أقصد أن أكون كاتبا لها. يبدو أن هناك علاقة بين المشاركة في الأحداث والكتابة. لا أستطيع بعد كل هذا أن أكون مؤرخا، أو أحاول الحفاظ على شرف مهنة محايدة أو متواطئة كهذه، مثلما لم أستطع فيما قبل أن أمتنع تماما عن أن أكون عنصرا فعالا في الأحداث – ولو برغم أنفي.

وكلما فكرت في أختي الصغيرة التي تجرى نحوى في بداية كل عام دراسي لكي أجلد لها الكراريس، ألصق التكت عليها، تستحلفنى أن أكتب لها اسمها فوق التيكت "بخط الكبار"، اقول لنفسي، بينما أنظر إلى الذين تمسكوا بغارب، ثم بسلامة، أن هؤلاء البشر محتاجون أيضاً لان يصنعوا لأنفسهم كبيرا يستطيع لصق أسمائهم على جبينهم بخطه هو. وأن الخط الجميل هنا صار هو نفسه الخط المتقنة كتابته بالنسبة لهؤلاء

الصغار، مما ساوى الجميل بالمضبوط، والجميل بما يفعله الكبار، الذي دائما أكثر "ضبطا" بالبديهة من خط الصغار. وأن زهو الكبار بما يخطونه بالمقارنة بالصغار زهو ذو طبيعة غير متكافئة، ليس لأن هؤلاء صغار ولآخرين كبار، فهذا أمر مشكوك فيه، لكن لأن ما يجعل الخط جميلا بالنسبة للكبار، ليس هو نفسه ما يراه الصغار جميل في خطوط الكبار.

أختى الصغيرة مثلا ترى أن خطى جميل لأننى كبير، وأنا في لحظة كتابة اسمها أرى أن خطى جميل لأنه خطى. لكننى في نفس الوقت لم أفكر في أن خطها هي أيضا قد يكون جميلا لأنه خطها، بل وفكرت أنه رديء لأنها صغيرة. لا أحد يرى خطوط الآخرين لأنها خطوط الآخرين، حتى أختى الصغيرة لم تر خطى. وما زالت الشيطانة الصغيرة تغويني برغم ذلك على الزهو بكوني كبير، بينما أزداد كل يوم كرها لخطى الذي لن تحتاجه هي بعد سنة أو سنتين ليرسم لها حروف اسمها. أعتقد أننى متورط في عملية الكتابة أكثر منها، بما أن انجذابها لخطى انجذاب وقتي بالضرورة، واتكائي على جمال خطى في نظرها يجعل شعوري بعجز خطى عن التأثير

مرهون بنظرتها إليه. هكذا ستبقى قدرتي على الزهو والشعور بذاتي مرهونة باعتقاد تلك الصغيرة فيهما. علاقة غريبة لم اكن اعتقد أنها مهمة إلى هذا الحد. ولم أكن اتخيل أن إدمان الكتابة سيضطرها إلى ألا تكون محايدة، وأنا بالتبعية، وسأضطر لأن أفعل شيئا بطوليا أشيد به عندما أعود (كنت قد خططت للعودة) لتأريخ الاحداث. بمعنى أخر، أغرتني الكتابة وأوقعتني أولا في فخ التأريخ، ثم في المشاركة في صناعة التاريخ نفسه، وكنت أتلاعب بتعزية نفسي بأنني، لن أكذب عند الكتابة.

لكن الساحرة المستديرة ليست هي الكتابة، إنها كرة القدم. عندما جاءت أختى إلى حجرتي حاملة كراسات العام الجديد كان هناك شيء قد تغير في نظرتها، صارت أكثر ألفة ومودة فكرهت أن أنظر إليها طويلا. قالت:

- قل عروستي.

- عروستي.

- مدورة.

- عروستي.

- العين على شكلها.

- عروستي.

-والارض والبلى وجمرة النار.

- الكورة؟

- لأ، الساحرة المستديرة. المعلق في التليفزيون قال عليها كدة.

- هو فيه ساحرة مستديرة؟ الساحرة يا طيبة يا شريرة. قلتُ بود فأجابتني بنصاحة:

- هو احنا لازم نوصفها على حسب اخلاقها، هي حرة في أخلاقها، وبعدين ايش عرفك ان الشر شر والخير خير؟ خلينا نوصفها بحاجة متأكدين منها.

- ليه؟ الشر هو الحاجة الوحشة زي القتل والضرب والسرقة.. والخير هو ال..

- يعني لما ماما تضربني ده شر؟

- علشان مصلحتك يبقى خير.

-بس لو أنا ضربتها علشان مصلحتها هاتقول لي وانت أيش عرفك مصلحتي فين، إنت صغيرة. يعنى الصغيرين شر والكبار خير يعني؟ بكرة أكبر وابقى اكبر منك كمان، ومش هاخليهم يسموها كرة القدم، هايسموها من هنا واريح الساحرة المستديرة، واي حاجة مدورة هاتبقى ساحرة مستديرة، انت مثلا هايبقى اسمك الساحر الطويل والرفيع، وأنا هايبقى اسمي الساحرة اللى راكبة الكراس، علشان ما عاييش مقشة، ماما بقى هي الساحرة الشريرة علشان المقشة ما بتفارقش ايدها.

(٢)

بوعى منى هذه المرة، شاركت في لعبة جديدة. جعلنى ذلك أدرك أننى قاربت على الانتهاء من دوري القديم كمؤرخ، وإن كنت اخللت به بعض الشيء، إلى دور حقيقي: ند في لعبة يتشارك فيها اثنان واسمها عروستي: أي متعلقة بالحياة الاجتماعية الاكثر نووية وهي الاسرة بل وبجزئ حيوي منها اسمع العروسة. لعبة تعتمد على راسل ومرسل اليه، بينهما رسالة لا يقولها المرسل بل يعبر عن صفاتها ذلك لكي يكتشف المرسل إليه ذات الرسالة من خلال الصفات، لكي يعمل عقلة أثناء الانصات مثلما يعمل المرسل عقله اثناء الارسال. ليس ما يجب توصيله هو صفات الشيء، بل اسم الشيء الذي يدور في ذهن المرسل أثناء ارسال الصفات.. لعبة جديدة، أكثر تعقيدا وأقل اجتماعية مما يتناسب مع تطور الخبرات أثناء تراكمها فوق ميراث مهد أرض الألعاب لها. لكن لا يجب أن أبدأ في الحديث عنها قبلما الانتهاء من تأريخ اللعبة القديمة.

هنا أفكر في الترك. في التخلي عن اللحية والشارب الابيضين. لكن الترك لا يعني التخلي كلية. أختى تتركني، ولا يعني ذلك أنها لن ترغب في رؤيتي مرة أخرى، لكنها ترغب الان في متابعة المباراة.

أريد ان اتحدث عن الترك فأتحدث عن اختي. وكان من الأولى أن أتحدث عن غارب. لا أظنه كان يرغب في مغادرتي عندما سقط في النهر، لم يكن يريد ان يتخلى عني، لم يكن يتعمد تركي، بقدر ما كان يتعمد استكمال مسيرة زهده إلى التخلى عن جسمه. وأن أحل محله. كان يمنحنى وجوده بينما يتركني. وهذا لا يعنى أنه يتخلى عني. بل على العكس، أنه يجمع نفسه علىّ.

يبدو لي أن الترك هو اضطرارك للتخلي عن اشياء تخصك، أو تعتقد أنها تخصك. كأن يموت لك صديق فتضطر ان ترحل بعد حضور جنازته. لكنك تبقيه داخلك. يبقى حيا من خلالك. يحتل حجرة في عقلك، بألا تنساه. مثلما تركت عزة لسلامة وسلوى للحديقة. أما فردوس فقد تخليت عنها عندما

حاولت أن أنجو بنفسى من النار التي أشعلتها للثأر من سلامة الذي حبسني.

وهنا نعود إلى الساحرة المستديرة التي ألهمتنى بها أختى في شكل من أشكال التداخل الزمني، بل واللازمن الخاصين بالارواح. فزحزحت جسمي داخل القفص حتى اقتربت من شجرة جوز الهند قرب النهر. والتقطت ثمرة وأشعلتها بمائة ثم فككت بالنار قيدي وألقيتها بعدئذ على سلامة لكي تحرقه وبذلك بدأت لعبة كرة القدم بعكس ما كان سلامة يشيع بيننا قبل معاكسة البنات. كان يقول أن لعبة الكرة تقوم أساسا على الرغبة في الاستحواز: "الشكل الوحيد اللي ممكن تمسكه تحس إن إيدك مليانه " قال متفحصا استدارات عزة.

لكنني اكتشفت بعد التجربة ان هذه اللعبة تقوم على الرغبة في درأ الخطر بأنانية تضاهي أنانية الامتلاك. قوامها أنه طالما الكرة معي يجب أن أتخلص منها قبل أن تحرقني. لم

يستطع سلامة أن يتفادى لياقتي وبعد سجال من النظرات وصد ورد الكرة بقيت عنده فاحترق.
عندئذ امسكت فردوس بعزة مستحوزة على كل استداراتها. حاولت أن انتزع عزة بكل إرادتي، لكن فردوس كانت ممسكة بها بشراسة غريبة. وبقيتا لمدة أيام لا يحدثانني. يستيقظان فيصليا للجهة الاخرى من النهر ماسكتين ثمرة جوز بين أيديهما كتمثيل للذنب الاول. ثم يبحثا عن طعام. وإذا ما فكرت عزة في أن تعطيني بعضة نهرتها فردوس فارتدعت. ذات يوم تنازعنا عزة أنا وفردوس حتى مزقناها إربا. فجريت هاربا من هول المشهد بينما أخذت فردوس تأكل المزق بآلية يتملكها الفزع.

(تيترات: كتابة على شاشة سوداء: "بقيت فردوس في الغابة حتى أنطفأ الحريق وتحولت تدريجيا إلى انسان غابة وبدأت الحيوانات تتوافد من جديد على المكان، أنجبت طفلا وتزوجته مثلما يحدث أحيانا في قانون الطبيعة الحيوانية. سكتت النار عن النهر، واتصلت حديقة الاب بالغابة ونشأت سلالة جديدة من إنسان الغابة، بعدما ماتت فردوس موته

طبيعية. ووضعت الجثة تحت الدراسة في حوزة متخصصين في الآثار والمومياوات." صورة التيترات انسان أسود عاري مطلي بالرماد يتسلق جزع شجرة شديد الاخضرار إلى ان يصل للمنطقة التي تخرج منها الفروع، يدير رأسه في اتجاهات الفروع المتشعبة لا يدري يكمل الصعود على أيها. الخلفية بنية زرقاء وتصاحبها موسيقى أدغال).